الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية
المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

حققه
الدكتور صلاح الدين المنجد

دار الكتاب الجديد
بيروت • لبنان

الطبعة الأولى

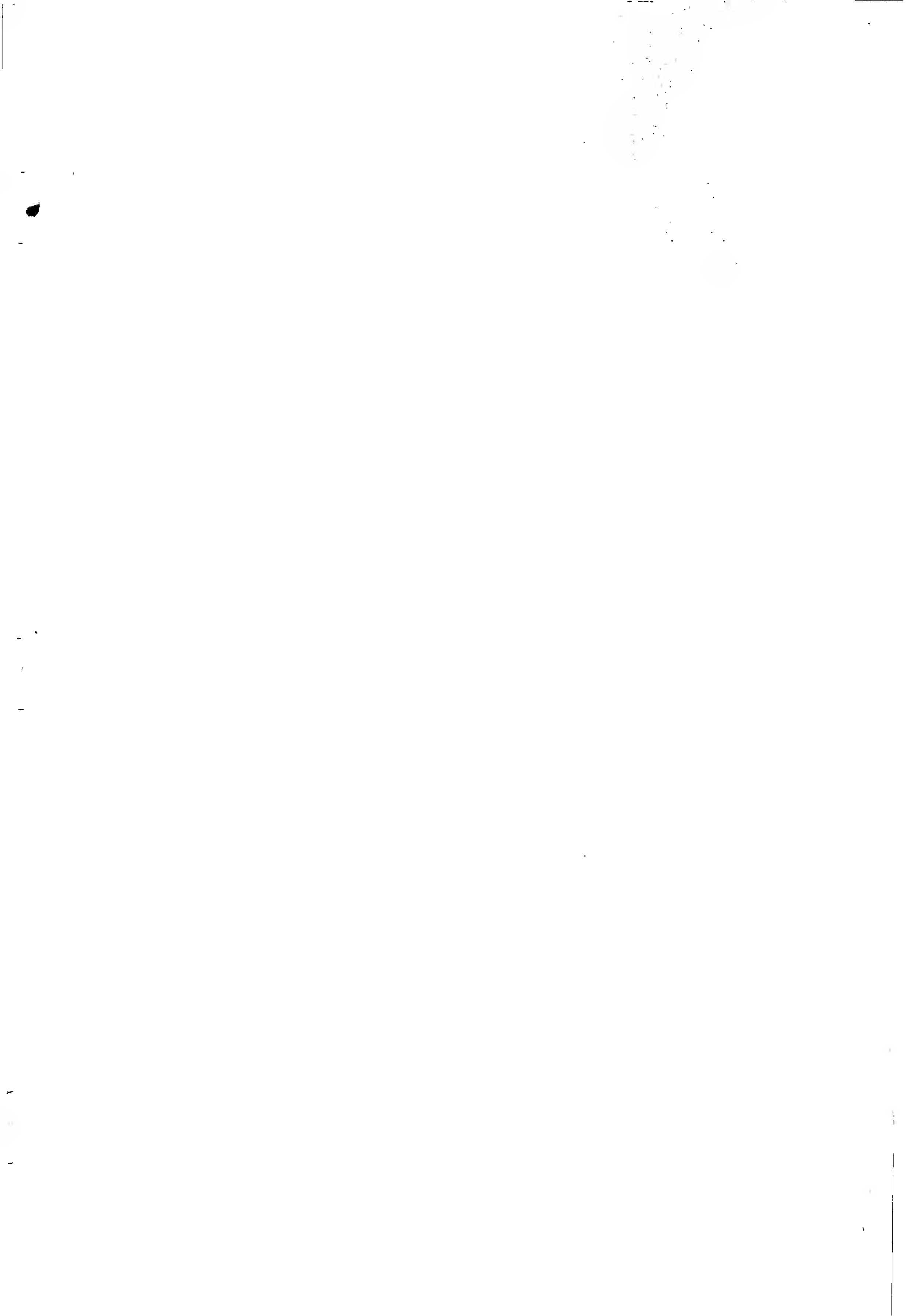
عن دار الكتاب الجديد

بيروت، ١٩٧٦ – ١٣٩٦ هـ

من كلام شيخ الاسلام

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر



المقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم ، وهو حسبي

انّ من المزايا التي تفرّد بها الاسلام : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقد أرسل الله تعالى رسوله ، صلوات الله عليه ، للناس كافة ليأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، حسب الشريعة التي انزلها . فقـــام الاسلام كله على هذا « الأمر » بنوعيْه . فالاسلام كلّه « معروف » يجب اتباعـــه ، فإذا خرج الناس عن هذا « المعروف » أو خالفوه ، أتوا « بمنكر » ينبغي النهيُ عنه . فهو لا يمكن ان يُعرف إلا بهـــذا « الأمر » . لذلك من الواجب معرفة معنى « المعروف » ، ومعنى « المنكر » ، ثم معرفة معنى « الأمر » بهما ، وطُرُقه ، ومجالاته ، وحدوده ، ومَنْ يحقّ لهم القيام به .

ولا أعلم أحداً من العلماء فصّل الكـــلام في هذا الموضوع ووضّحه كشيخ الاسلام ابن تيمية . فقد تكلّم فيه كلام عالم خبير ، لا يغيب عنه من الشريعة ، قرآناً وسُنّة ، ومن آثار السلف وأعمالهم ، شيء . فأحسن فيما كتب وأجاد ، واستطرد في الكلام حتى أحاط بالموضوع ودقائقه ، ولم يدع شيئاً تجب معرفته إلّا نوّه به أو ذكره ، ورسالته « في الأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر دليل ساطع على ما نقول .

ولا يبدو ابن تيمية في رسالته مفسّراً ومحدّثاً وفقيهاً وأصوليّاً ، فقط ،

بل نراه عالماً نفسياً يحلل أهواء النفس الانسانية وطباعها على اختلافها ، في حبّها وبغضها ، وأمرها ونهيها ، وكبريائها وبغيهـــا ، وكرمها وشُحّها ، وشجاعتها وجُبنها وغير ذلك ، ويبيّن أسباب هذه الأهواء والطبـــاع ، كما نراه عالماً اجتماعياً ، يشير إلى بعض قوانين علم الاجتماع . وعلى الجملة فإن رسالته تعتبر من جيّد ما جاد به فكره الشامل الخصب .

وما ذكره في رسالته ، طبّقه في سيرته وأعماله ، طول حياته . فنـــال بسببه من العداوات والأذى ما هو معروف . وكان في امره ونهيه دائماً شجاعاً جريئاً صابراً ، لا يخشى احداً .

وكنت أُدمن قراءة رسالة شيخ الاسلام هذه ، وأجد في قراءتها كل مرّة أموراً جديدة . وكنتُ اوصي الكثيرين من الطـُلاب والمثقفين الراغبين في فهم الاسلام ، والكثيرين من علماء الدين ، بقراءتها وفهمها واتباع ما جاء فيهـــا . فهي خير دليل لكل مسلم إلى الطريق القويم .

* * *

نشر هذه الرسالة قبل عشرين عاماً (١٩٥٦) صديقنا الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله ، في كتاب جمع رسائل كثيرة مختلفة سمّاه « شذرات البلاتين من طيبَات كلمات سلفنا الصالحين » . وقد نفذت نسخ هذا المجموع ، وصعُب على الطـّلاب الذين كنت أنصحهم بقراءة الرسالة ، أن يجدوها .

لذلك رأيتُ إعادة نشرها .

وقد اعتمدتُ في النشر على مخطوطة في خزانتنا ، ضمن مجموع اشتمل على كثير من رسائل شيخ الاسلام ، سبق أن نشرنا منه كتاب « الأعلام العليّة في

مناقب شيخ الاسلام ابن تيمية » للحافظ أبي حفص البزّار .

وهي الرسالة العاشرة في المجموع . تقع في ١٥ ورقة ، كتبت بخط نسخي عادي ، وجاء في عنوانها :

من كلام شيخ الاسلام

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وجاء في آخرها : هذا آخر كلام الشيخ رضي الله عنه .

« نقله من أصـــل قديم الفقير لعفو ربه موهوب بن احمد بن هلال الصالحي الحنبلي، غفر الله ذنوبه بمنه وكرمه . ووافق الفراغُ منه سلخ سنة اربعين وثمانماية بالمدرسة الجوزية بدمشق . والحمد لله رب العالمين وهو حسبي ونعم الوكيل .

لم أجد ترجمة لكاتب النسخة . ويدلّ اسمه أنه كان من الحنـــابلة ، وقد كتبها بالمدرسة الجوزية بدمشق . وهي المدرسة التي أنشأها العلامة محيي الدين يوسف بن الحـــافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي ، المتوفى سنة ٦٥٦ هـ . وكان سفيراً للخلفاء العبّاسيّين ، إلى بني ايوب . وقد حصل من ملوك الأيوبيين أموالاً بنى بها هذه المدرسة . وقُتـــل مع الخليفة المستعصم على يد هولاكو ، عندما هاجم بغداد . وكان قد وقف المدرسة على الحنابلة [١] .

---

(١) انظر النعيمي : تنبيه الطالب ١٩/٢ وما بعدها . وقد زالت هذه المدرسة . وقد حددنا موقعها في « مخطط دمشق القديمة » ، رقم ٦٩ ؛ وعن سفارات الشيخ محيي الدين الى ملوك الأيوبيين انظر كتابنا ؛ التاريخ الدبلوماسي في الاسلام .

وتغلب على النسخة الصحة ، وقد ذكر ناسخها أنه نقلها من أصل قديم ، والأخطاء التي فيها لا شأن لها .

وقد قارنا نصّ نسختنا بالنص الذي نشره الفقي رحمه الله . فوجدنا في نسختنا زيادة هامّة تتعلق بتحديد المعروف والمنكر ، لا توجد في المطبوعة . وهناك اختلاف في بعض الألفاظ ، أشرنا اليها في الهوامش .

وقد قسّمنا النص وجعلنا لأقسامه عنوانات تُسهّل معرفة موضوعاته . ونسأل الله أن ينفع به ، وأن يجعل عملنا كله صالحاً ، ولوجهه خالصاً .

بيروت ١٩٧٦ — صلاح الدين المنجد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ، نحمدُه ونستعينهُ ونستغفره ، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يَهْد الله فلا مُضِلّ له ، ومَنْ يُضلل فلا هاديَ له .

وأشهدُ أنْ لا إله الا الله ، وحدَه لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أرسله بالهدى ودين الحق ، ليُظهره على الدين كلّه . وكفى بالله شهيدا . صلى الله عليه وآله ، وسلم تسليماً .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الذي أنزل الله به كُتُبَه ، وأرسل به رُسُلَه ، وهو من الدين . فإنّ رسالة الله إمّا إخبارٌ وإمّا إنشاء . فالإخبارُ عن نفسه عزّ وجلّ [1] وعن خَلْقه ، مثل التوحيد ، والقَصَص الذي يندرجُ فيه الوعْدُ والوعيد . والإنشاءُ : الأمر والنَهْي والإباحة .

وهذا كما ذُكر في الحديث أنّ « قُلْ هو الله أحدٌ تعدِلُ ثُلُث القرآن » [2] . لتضمّنها الثلثَ الذي هو التوحيد . لأن القرآن توحيد وأمر وقَصَص [3] .

---

(١) « عز وجل » ساقطة من ف

(٢) رواه البخاري في باب فضائل القرآن ، باب فضل قل هو الله أحد . ولفظه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن » .

(٣) ف « اذ القرآن قصص وتوحيد وأمر » .

وقولهُ : سبحانه في صفة نبيّنا ﷺ (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويُحِلُّ لهمُ الطيّبات ، ويُحَرِّمُ عليهم الخبائث) [١] هو بيان لكمال رسالته ، فإنّه ﷺ هو الذي أمرَ اللهُ على لسانه بكلّ معروف ، ونهى عن كلّ منكر ، وأحلَّ كلَّ طيّب ، وحرّم كلّ خبيث . ولهذا رُوي عنه ﷺ أنّه قال : « إنّما بُعِثْتُ لأتمّم مكارمَ الأخلاق » [٢] . وقال في الحديث المتّفق عليه : « إنما مَثَلي ومثلُ الأنبياء كمَثَلِ رجلٍ بنى داراً فأتمّها(اب) وأكمَلَها ، إلاّ موْضع لَبِنَة ، فكان الناسُ يُطيفون بها ، ويُعجبون من حُسْنها ، ويقولون : لولا موضعُ اللّبِنَة . فأنا تلك اللّبنة » [٣] .

فبه أكمل اللهُ الدينَ المتضمّن للأمر بكلّ معروف ، والنهي عن كلّ مُنكر ، وإحلالِ كلّ طيّب ، وتحريم كلّ خبيث .

وأمّا مَنْ كان قبله من الرُسُل فقد كان يُحَرِّمُ على أممهم بعض الطيّبات ، كما قال الله تعالى : (فَبِظُلْمٍ من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيّباتٍ أُحِلّتْ لهم) [٤] ، وربّما لم يحرّم عليهم جميع الخبائث ، كما قال تعالى :

---

(١) سورة الأعراف ، ٧ ، الآية ١٥٧ .

(٢) انظر الموطأ ، حسن الخلق ٨ ، ومسند أحمد ٣٨١/٢ ، وفيه : « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » .

(٣) رواه الترمذي في الأمثال ٧٦/٨ ، والبخاري في صفة النبي ، ومسلم في فضائل النبي . وانظر مسند أحمد ٢٤٤/٢ .

(٤) سورة النساء ، ٤ ، الآية ١٦٠ .

(كلُّ الطعام كان حِلاً لبني اسرائيل ، إلّا ما حرّم إسرائيلُ على نفسه ، من قبل أن تُنَزّل التوراةُ)[1] .

وتحريم الخبائث يندرجُ في معنى النهي عن المنكر ، كما أنّ إحلال الطيّبات يندرجُ في الأمرِ بالمعروف . لأنّ تحريم الطيّبات هو[2] مِمّا نهى الله عنه ، وكذلك الأمرُ بجميع المعروف والنهْي عن كلّ منكر لم[3] يتمّ إلّا لرسول الله ، الذي تمّم الله به مكارم الاخلاق المنطوية[4] في المعروف . وقد قال الله تعالى (اليومَ أكملتُ لكم دينَكم ، وأتمَمْتُ عليكم نعمتي ، ورضيتُ لكم الاسلامَ دينا)[5] . فقد أكمل الله لنا الدينَ ، وأتمّ علينا النعمة ، ورضيَ لنا الاسلام دينا .

[هذه الأمة خير الأمم للناس]

وكذلك وصف الأمّة بما وصف به نبيّها حيث قال : (كنتمُ خيْرَ أمّةٍ أُخرِجتْ للناس ، تأمرون بالمعروف وتَنْهَوْن عن المنكر وتؤمنون بالله)[6] ، وقال تعالى : (٢ آ) (والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهم أولياء بعضٍ ، يأمرون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المُنكَر)[7] .

---

(١) سورة آل عمران ، ٣ ، الآية ٩٣
(٢) ساقطة من ف
(٣) ف « مما لم يتم »
(٤) ف « المندرجة »
(٥) سورة المائدة ، ٥ ، الآية ٣
(٦) سورة آل عمران ، ٣ ، الآية ١١٠
(٧) سورة التوبة ، ٩ ، الآية ٧١

ولهذا قال ابو هُرَيْرَة رضيَ الله عنه « كنتم خيرَ الناس للناس ، تأتون بهم في القيود والسلاسل حتى تُدْخلوهم الجنّة » .

فبيّن الله سبحانه أنّ هذه الأمّة خير الأمم للناس ، فهم أنفعهم لهم ، وأعظمهم إحساناً اليهم ، لأنهم كلّ خَيْر ونفع للناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر [1] ، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم . وهذا كال النفع للخلق .

وسائر الأمم لم يأمروا كلّ أحد بكلّ معروف ، ولا نهوا كلّ أحد عن كلّ مُنكر ، ولا جاهدوا على ذلك ، بل منهم مَن لم يجاهد ، والذين جاهدوا كبني اسرائيل فعامّة جهادهم كان لدفع عدوّهم عن أرضهم ، كما يُقاتل الصائل الظالم ، لا لدعوة إلى الهدى والخير ، ولا لأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، كما قال موسى لقومه : (يا قومِ ادخلوا الأرضَ المقدّسة التي كتبَ اللهُ لكم ، ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين. قالوا يا موسى إنّ فيها قوماً جبّارين، وإنّا لن ندخُلَها حتى يخرجوا منها ، فإنْ يخرجوا منها فإنا داخلون . – الى قوله – : قالوا يا موسى لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فاذهبْ أنتَ وربّك فقاتلا ، إنّا ههنا قاعدون) [2] . وقال تعالى : (ألم ترَ إلى الملأِ من بني اسرائيلَ من بَعْدِ موسى، (٢ ب) إذْ قالوا لنبيٍّ لهمُ ابعثْ لنا مَلِكاً نقاتلْ في سبيل الله . قال هل عَسَيْتُم إنْ كُتب عليكم القتالُ ألا تُقاتلوا ؟

---

(١) في ف زيادة : « من جهة الصفة والقدر ، حيث أمروا بكل معروف ونهوا عن كل منكر لكل أحد » .

(٢) سورة المائدة ، ٥ ، الآيات ٢١ – ٢٤ .

قالوا : وما لنا أن لا نُقاتل في سبيل الله وقد أُخرجْنا من ديارنا وأبْنائنا . فلمّا كُتب عليهم القِتالُ تولّوْا إلّا قليلاً منهم ، والله عليمٌ بالظالمين) [١] . فمّللوا القتالَ بأنّهم أُخرجوا من ديارهم وأبنائهم ، ومع هذا كانوا ناكلين عمّا أمروا به من ذلك . ولهذا لم تَحِلّ لهم الغنائم ، ولم يكونوا يطأون بملك اليمين .

ومعلوم أنّ أعظم الأمم المؤمنين قبلنا هم بنو اسرائيل ، كما جاء في الحديث المتّفق على صحّته في الصحيحَيْن عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، أنّ النبيّ ﷺ قال : « عُرِضَتْ عليّ البارحة الأنبياء بأممهم . فجعل النبيّ يمرّ ومعه الرجل، والنبيّ ومعه الرجلان ، والنبيّ ومعه الرهط ، والنبيّ وليس معه أحد .ورأيت سواداً كثيراً ، – وفي رواية : فإذا الظّراب [٢] ممتلئة بالرجال – . فقلت : هذه أمّتي ! فقيل : هؤلاء بنو اسرائيل . ولكن انظر هكذا وهكذا . فرأيتُ سواداً كثيراً قد سدّ الأفق . قيل : هؤلاء أمتك ، ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنّة بغير حساب . فتفرّق الناس ولم يبيّن لهم . فتذاكر أصحاب النبيّ ﷺ فقالوا : أمّا نحن فوُلدنا في الشرك، ولكنّا آمنّا بالله ورسوله . ولكن هؤلاء ابناؤنا . فبلغ النبيّ ﷺ فقال : هم الذين لا يَكْتَوُون ، ولا يَسْتَرقُون ، ولا يتطيّرون (٣ آ) وعلى ربّهم يتوكّلون . فقام عُكّاشة بن مِحْصَن [٣] فقال : أمنهم أنا يا رسول الله ؟

---

(١) سورة البقرة ، ٢ ، الآية ٢٤٦ .

(٢) الظراب الجبال الصغار ، واحدها ظرب بوزن كتف (النهاية ١٥٦/٣) .

(٣) من فضلاء الصحابة ، شهد بدراً واحداً والخندق وسائر المشاهد مع رسول الله . توفي في خلافة ابي بكر . (الاستيعاب ١٠٨٠/٣) .

قال : نعم . فقام آخر فقال : أمنهم أنا ؟ فقال : سبقك بها عُكّاشة » [١] .

ولهذا كان إجماع هذه الأمّة حجّة ، لأن الله تعالى قد أخبر أنهم يأمرون بكلّ معروف ، وينهَوْن عن كلّ مُنكر . فلو اتفقوا على إباحة مُحرّم أو إسقاط واجب أو تحريم حلال أو إخبارٍ عن الله تعالى أو خَلْقه بباطل ، كانوا مُتّصفين بالأمر بالمنكر والنهْي عن المعروف . والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ليس من الكلم الطيّب والعمل الصالح ، بل الآية تقتضي أنّ ما لم تأمر به الأمّة فليس من المعروف ، وما لمْ تَنْهَ عنه فليس من المنكر . إذْ كانت آمرةً بكلّ معروف ناهية عن كلّ منكر ، فكيف يجوز أن تأمر كلّها بمنكر ، أو تَنْهى كلّها عن معروف ؟

والله سبحانه وتعالى كما أخبر بأنّها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فقد أوجب ذلك على الكفاية منها بقوله (ولْتَكُنْ منكم أمة يَدْعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروفِ ، ويَنْهَوْن عن المنكر ، وأولئك همُ المُفلحون) [٢] .

وليس من شرط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [٣] أن يصل أمرُ الآمر ونَهْي الناهي الى كلّ مكلّف في العالم . إذْ ليس هذا من شرط تبليغ الرسالة ، فكيف يُشتَرَطُ فيما هو من توابعها ؟ بل الشرط أن

---

(١) رواه البخاري في كتاب الطب ، باب من اكتوى أو كوي ، ولفظه اتم مما ورد هنا . — ومسلم في الايمان الحديث ٣٧١ ، ٣٧٤ .

(٢) سورة آل عمران ٣ ، الآية ١٠٤ .

(٣) ف « واذا أخبر الله بوقوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منها لم يكن من شرط ذلك أن يصل ... » .

يتمكّن المكلّفون من وصول ذلك اليهم ، ثم إذا َفرّطوا فلم يسعوا في وصوله اليهم ، مع قيام فاعله بما يجب عليه ، كان التفريطُ (٣ ب) منهم لا منه .

ولا يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل أحد بعينه [١] ، بل هو على الكفاية كما دلّ عليه القرآن .

ولمّا كان الجهاد من تمام ذلك ، كان الجهاد هو كذلك . فإذا لم يقم به مَنْ يقوم بواجبه أثم كلّ قادر بحسب قدرته . إذْ هو واجب على كلّ انسان بحسب قدرته . كما قال النبيّ ﷺ « من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » [٢] .

وإذا كان كذلك ، فمعلوم أنّ الأمر بالمعروف والنهْي عن المنكر ، وإتمامه بالجهاد هو من أعظم المعروف الذي أُمرنا به .

[ما هو المعروف ، وما هو المنكر]

ومن النهي [٣] عن المنكر إقامة الحدود على مَنْ خرَج من شريعة الله .

ويجب على اولي الأمر : وهم علماء كل طائفة وأمراؤها ومشايخها أن يقوموا على عامّتهم ويأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر فيأمرونهم بما أمر الله به ورسوله . مثل شرائع الاسلام وهي الصلوات الخمس في مواقيتها ، وكذلك الصدقات المشروعة ، والصوم المشروع ، وحج البيت الحرام ، ومثل الايمان

---

(١) ف « وكذلك وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجب على كل أحد .. » .
(٢) رواه مسلم في الايمان ، ٧٨ ، ٦٩/١ .
(٣) من هنا ساقط في ف .

بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والايمان بالقدر خيره وشرّه ، ومثل الاحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ومثل ما أمر الله به ورسوله من الأمور الباطنة والظاهرة (٤ آ) ، ومثل إخلاص الدين لله ، والتوكل على الله ، وأن يكون الله ورسوله أحبّ اليه مما سواهما ، والرجاء لرحمة الله والخشية من عذابه ، والصبر لحكم الله ، والتسليم لأمر الله . ومثل صدق الحديث ، والوفاء بالعهود ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، وبرّ الوالدَين ، وصلة الأرحام ، والتعاون على البِرّ والتقوى ، والاحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل ، والصاحب والزوجة والمملوك ، والعدل في المقال والفعال ، ثم الندْب إلى مكارم الأخلاق ، مثل أن تصل مَنْ قطَعَك ، وتُعطي مَنْ حرَمك ، وتعفو عمن ظَلَمك .

ومن الأمر بالمعروف كذلك الأمر بالائتلاف والاجتماع ، والنهْي عن الاختلاف والفرقة ، وغير ذلك .

وأما المنكر الذي نهى الله عنه ورسولهُ فأعظمه الشرك بالله ، وهو أن يدعو مع الله إلهاً آخر كالشمس والقمر والكواكب ، أو كمَلَك من الملائكة ، أو نبيّ من الأنبياء أو رجل من الصالحين ، أو أحدٍ من الجن ، أو تماثيل هؤلاء أو قبورهم ، أو غير ذلك مما يُدعى من دون الله تعالى ، أو يستغاثُ به ، أو يُسجد له . فكل هذا وأشباهه من الشرك الذي حرّمه الله على لسان جميع رسله .

ومن المنكر كل ما حرّمه الله ، كقتل النفس بغير الحق ، وأكل أموال الناس بالباطل ، بالغصب أو الربا او الميْسر ، والبيوع والمعاملات التي نهى عنها

رسول الله ﷺ ، وكذلك قطيعة الرحم ، وعقوق الوالدين ، وتطفيف المكيال والميزان ، والإثم ، (٤ ب) والبغي. وكذلك العبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله ﷺ . وغير ذلك [١] .

[ليكن امرك بالمعروف ، بالمعروف]

والرفق سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولهذا قيل :

ليكن أمرك بالمعروف ، بالمعروف ، ونهيك عن المنكر غير مُنْكَر .

[في الأمر بالمعروف لا بد ان تكون المصلحة راجحة]

واذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات أو المستحبّات لا بُدّ ان تكون المصلحةُ فيها راجحة على المفسدة . إذْ بهذا بُعثتِ الرُسُل، ونـزَلت الكتب . واللهُ لا يحبّ الفساد ، بل كلُّ ما أَمرَ الله به هو صلاح . وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذمَ الفساد والمفسدين في غير موضع . فحيثُ كانت مفسدةُ الأمر والنهى أعظم من مصلحته ، لم يكن مما أمر اللهُ به ، وإنْ كان قد تُرك واجبٌ وفُعل مُحَرّم . إذ المؤمنُ عليه ان يتّقي الله في عباد الله ، وليس عليه هُداهم . وهذا من معنى قوله تعالى (يا أيّها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضرْكم مَن ضلّ اذا اهتديتم) [٢]، والاهتداء إنما يتمّ بأداء الواجب . فإذا قام المسم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما قام بغيره من الواجبات ، لم يضرّه ضلال الضالّ .

---

(١) الى هنا ينتهي الساقط من المطبوعة .

(٢) سورة المائدة ، ٥ ، الآية ١٠٥ .

[كيف يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

وذلك يكون تارةً بالقلب ، وتارةً باللسان ، وتارةً باليد . (٥ آ) .

فأما القلبُ فيجب بكلّ حـــال . اذ لا ضَرَر في فعله ، ومَنْ لم يفعله فليس هو بمؤمن ، كما قال النبيّ ﷺ « وذلك أدنى ، أو أضعف الايمان[١] » .

وقال : « ليس وراء ذلك من الايمان حبّة خَرْدَل »[٢] .

وقيل لابن مسعود رضي الله عنه : مَنْ ميّتُ الأحيـاء ؟ فقال : الذي لا يعرف معروفاً ولا يُنكر مُنكَـرا » .

وهـــذا هو المفتونُ الموصوفُ بأنّ قلبه كالكوز مُجَخّياً ، في حديث حُذَيْفَة بن اليمان ، رضي الله عنهما في الصحيحَيْن « تُعْرَضُ الفِتنُ على القلوب عرضَ الحصير . الحديث »[٣] .

[واقع الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

وهنا يغلط فريقان من الناس .

فريق يترك ما يجب عليه من الأمر والنهْي ، تأويلاً لهذه الآيـــة كما قال

---

(١) في سنن ابن ماجه ، ابواب الفتن ٦/٣٣٧ : « من رأى منكراً فلينكره بيده ، ومن لم يستطع فبلسانه ، ومن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمـــان » ، وأخرجه احمد ومسلم في الايمان ، والنسائي وابن ماجه في كتاب الفتن .

(٢) انظر صحيح مسلم ، كتاب الايمـــان ، الحديث ٨٠ ، ١/٧٠ ؛ وصحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب رفع الأمانة ، ولفظه : يقال للرجال ما أعقله وما أظرفه وما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبة خردل من ايمان » .

(٣) انظر صحيح مسلم ، باب كتاب الايمان ، الحديث رقم ٢٣١ ، ١/١٢٨ .

ابو بكر الصدّيق رضي الله عنه في خطبته : « أيّها الناس ، إنكم تقرأون هذه الآية (عليكم أنفسَكم لا يضرّكم مَنْ ضلّ إذا اهتديتم) ، وإنّكم تضعونها على غير موضعها . وإنّي سمعتُ النبيّ ﷺ يقول : « إنّ الناس إذا رأوا المنكرَ فلم يُغيّروه ، أوشك أن يَعُمَّهم اللهُ بعِقابٍ منه »[1] .

والفريقُ الثاني : مَنْ يريدُ أنْ يأمر وينهى ، إما بلسانه وإمّا بيده مُطْلَقاً ، من غير فِقْه ولا حلم ولا صَبْر ولا نظرٍ فيما يصلح من ذلك وما لا يصلحُ ، وما يُقدر عليه وما لا يُقْدَر (٥ ب) ، كما في حديث أبي ثَعْلَبَة الخُشَني : سألتُ عنها - أي الآية - رسولَ الله ﷺ فقال : « بل ائتمروا بالمعروف وانهوا عن المُنْكَر ، حتى إذا رأيتَ شُحّاً مُطاعاً ، وهوىً متّبعاً ، ودنيا مؤثَرة ، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيه ، ورأيتَ أمراً لا يَدَان لك به ، فعليْك بنفسك ، ودَعْ عنك أمرَ العوام ، فإنّ من ورائك أيّام الصبر ، الصَبْر فيهنّ مثل قَبْضٍ على الجمر ، للعامل فيهنّ كأجْرِ خمسين رجلاً يعملون مثل عمله »[2] .

فيأتي بالأمر والنهي معتقداً أنه مطيع لله ولرسوله ، وهو مُعتدٍ في حدوده ، كما نصب كثير من أهل البدع والأهوآء نفسه للأمر والنهي ، كالخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم ممن غلط فيما آتاه الله من الأمر والنهي والجهاد وغير ذلك ،

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الفتن : باب ما جاء في نزول العذاب اذا لم يغيّر المنكر . ولفظه ... « واني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله .. » ٦/٣٣٥ .

(٢) رواه ابن ماجه في كتاب الفتن ، ولفظه كما ورد هنا حتى قوله : لا يدان لك به ، ثم قال : فعليك بخويصة نفسك . فإن من ورائكم أيام الصبر ، الصبر فيهن على مثل قبضٍ على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون بمثل عمله » ٢/١٣٣١ .

وكان فساده أعظم من صلاحه [١] .

[يجب الصبر على جور الأئمة]

ولهذا أمر النبيّ ﷺ بالصبر على جور الأئمة ، ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة ، وقال : أدّوا اليهم حقوقهم ، وسلوا الله حقوقكم » [٢] .

[قتال الأئمة عند اهل السنة والمعتزلة]

ولهذا كان من أصول أهل السُنّة والجماعة : لزوم الجماعة وترك قتال الأئمة ، وترك القتال في الفتنة .

وأما أهلُ الأهواء كالمعتزلة فيرَوْن القتال للأئمة من أصول دينهم .

وتجعل المعتزلة أصول دينهم خمسة : التوحيد الذي هو سلب الصفات ، والعدلُ الذي هو التكذيب بالقَدَر ، والمنزلةُ بين المنزلتَيْن ، وإنفاذ الوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي فيه قتال الأئمة [٣] .

[القاعدة التي تتبع في الأمر والنهي]

وجماعُ ذلك داخل في القاعدة العامّة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد ، والحسنات والسيّئات ، أو تزاحمتْ ، فإنّه يجب ترجيحُ الراجح منها فيما إذا

(١) قوله : فيأتي بالأمر .. الى صلاحه ، أضيف في الهامش .

(٢) رواه الترمذي في كتاب الفتن ، باب : ما جاء في الأثرة ٣٥١/٦ ؛ والبخاري في علامات النبوة والفتن ، ومسلم في المغازي ، وأحمد ٣٨٤/١ .

(٣) في ف بعد ذلك : وقد تكلمت على قتال الأئمة في غير هذا الموضع .

ازدحمت المصالح والمفاسد (٦ آ) وتعارَضت المصالح والمفاسد .

فإن الأمر والنهْيَ - وإنْ كان مَتَضمّناً لتحصيـــل مصلحة ودَفْع مفسدة - فيُنظَرُ في المعارض له . فإنْ كان الذي يفوت من المصــالح ، أو يحصلُ من المفاسد أكثر ، لم يكن مأموراً به ، بل يكون مُحَرّماً إذا كانت مفسدتُه أكثر من مصلحته .

[يجب رد كل شيء الى ميزان الشريعة]

لكنّ اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة . فمتى قدر الانسانُ على اتبّاع النصوص لم يَعْدل عنها ، وإلّا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر ، وقلّ أن تُعْوِز النصوص مَنْ يكون خبيراً بها وبدلالتها على الأحكام .

وعلى هذا إذا كان الشخصُ والطائفة جامعين بين معروف ومنكر ، بحيث لا يفرّقون بينهما ، بل إمّا أن يفعلوهما جميعاً ، إو يتركوهما جميعاً ، لم يجُزْ أن يؤمروا بمعروف ولا أن يُنهوا عن مُنْكَر . بل يُنظر ، فإنْ كان المعروف أكثر أُمر به ، وإن استلزم مـــا هو دونه من المنكر . ولم يَنْهَ عن مُنكرٍ يستلزم تفويت معروف أعظم منه . بل يكون النهي حينئذ من باب الصَدّ عن سبيـــل الله ، والسعي في زوال طاعته وطاعة رسوله ﷺ عليه وسلّم ، وزوال فعل الحسنات .

وإنْ كان المنكرُ أغلبَ ، نُهي عنه . وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف ، ويكون الأمر بذلك المعروفِ المستلزمِ للمنكر الزائد عليه أمراً بمنكر ، وسعياً في معصية الله ورسوله (٦ ب) .

وإنْ تكافأ المعروف والمنكرُ المتلازمان لم يؤمر بهما ولم يُنْهَ عنهما .فتارةً

يصلُح الأمرُ ، وتارةً يصلح النهْي ، وتارة لا يصلح أمرٌ ولا نَهْيٌ حيث كان المعروفُ والمنكر متلازمين . وذلك في الأمور المعيّنة الواقعة .

وأما من جهة النوع فيؤمر بالمعروف مطلقاً ، ويُنهى عن المنكر مطلقا .

وفي الفاعل الواحد والطائفة الواحدة يؤمَرُ بمعروفها ويُنهى عن منكرها، ويُحمد محمودُها ، ويُذمُّ مذمومهـا ، بحيث لا يتضمّن الأمر بمعروف فوات معروف أكبرَ منه ، أو حصول مُنْكَرٍ فوقه . ولا يتضمّن النهْيُ عن المنكر حصول ما هو أنكرَ منه ، أو فوات معروف أرجح منه .

واذا اشتبه الأمرُ استبان المؤمنُ حتى يتبيّن له الحق ، فلا يقدم على الطاعة إلّا بعلمٍ ونيّة ، واذا تركها كان عاصياً . فتَرْكُ الواجب معصية ، وفعلُ ما نُهي عنه من الأمر معصية . وهذا باب واسع . ولا حول ولا قوّة الا بالله .

ومن هذا الباب ترك النبيّ ﷺ لعبد الله بن أُبَيّ بن سَلول وأمثاله من أئمة النفاق والفجور ، لِما لهم من أعوان . فإزالةُ المنكر بنوع من عقابه مستلزمةٌ إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميّتهم ، وبنفور الناس اذا سمعوا أنّ رسول الله ﷺ يقتل أصحابه . ولهذا لما خطبَ الناسَ في قضيّة الإفك بما خَطَبَهم به ، واعتذر عنه ، وقال له سعد بن مُعاذ قوله الذي أحسنَ فيه حمي له سعد بن عُبادة ، مع حُسْن ايمانه وصدقه - ،وتعصّب لكلّ منهم قبيلُة حتى كادت تكون فتنة (٧ آ) .

[الحب للمعروف يكون موافقاً لحب الله ..]

وأصلُ هذا أن تكون محبّةُ الانسان للمعروف وبغضُه ، وارادتُه لهذا وكراهتُه لهذا ، موافقاً لحبّ الله وبغضه ، وإرادته وكراهته الشرعين ، وأن

يكون فعله للمحبوب ، ودَفْعه للمكروه ، بحسب قوّته وقُدرته . فإنّ الله لا يكلّفُ نفساً إلّا وُسْعَها ، وقد قال : (فاتّقوا الله ما استطعتم)[1] .

[حب القلب وبغضه]

فأمّا حبّ القلب وبغضه ، وإراداته وكراهته فينبغي أن تكون كاملة ، جازمة . لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الايمان . وأمـــا فعل البدن فهو بحسب قُدرته .

ومتى كانت ارادة القلب وكراهته كاملة تامّة ، وفعل العبد معهـــا بحسب قدرته ، فإنّه يُعطى ثواب الفاعل الكامل . فإنّ من الناس مِنْ يكون حبّه وبغضه لا بحسب محبّة الله ورسوله ، وبغض الله ورسوله . وهذا من نوع الهوى، فإن اتّبعه فقد اتّبع هواه (ومَنْ أضَلّ ممّن اتّبع هَواهُ بغير هُدىً من الله)[2] ، فإنّ أصل الهوى هو محبّة النفس ، ويتبع ذلك بغضها .

[حقيقة الهوى]

والهوى نفسه ، وهو الحب والبغض الذي في النفس ، لا يُلام العبدُ عليه . فإن ذلك لا يملكه ، وإنما يُلام على اتباعه ، كما قـــال تعالى (يا داودُ إنّا جعَلناك خليفةً في الأرضِ ، فاحكُمْ بين الناسِ بالحقّ ، ولا تتّبع الهوى فيُضِلّك عن سبيل الله)[3] ، وقال تعالى : (ومَنْ أضلُّ ممّن اتّبع هواه

---

(١) سورة التغابن ، ٦٤ ، الآية ١٦ .
(٢) سورة القصص ، ٢٨ ، الآية ٥٠ .
(٣) سورة ص ، ٣٨ ، الآية ٢٦ .

بغيرِ هدىً من الله) [1] ، وقال النبيّ ﷺ : ثلاثٌ مُنجيات : خشيةُ الله في السرِّ والعلانية، والقَصْدُ في الفقر والغِنى، وكلمة الحق في الغضب والرضى. وثلاثٌ مُهْلِكات : شُحّ مُطاع ، وهوىً مُتّبع ، (٧ ب) وإعجابُ المرء بنفسه » .

والحبّ والبغض يتبعه ذوق عند وجـــود المحبوب والمبغوض ، وَوَجْدٌ وإرادة وغيرُ ذلك . فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله فهو مِمّن اتبع هواه بغير هدىً من الله ، بل قد يتمادى به الأمرُ الى أن يتخذ الهه هواه .

[إتباع الأهواء في الديانات السابقة]

واتبـــاع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في المشتهيات ، فإنّ الأوّل حالُ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، كما قال تعالى (فإنْ لم يستجيبوا لك فاعلمْ أنـّما يتـّبعون أهواءهم ، ومَنْ أضلُّ ممن اتـّبـع هواه بغير هدىً من الله ، واللهُ لا يهدي القوم الظالمين) [2] . وقال تعالى : (ضَرَب لكم مَثَلاً من أنفُسِكم ، هَلْ لكم ممّا ملكتْ أيمانُكم من شركاءَ فيما رزقناكم فأنتُم فيه سواءٌ ، تخـــافونهم كخِيفَتِكم أنفُسَكم . كذلك نُفصّلُ الآياتِ لقومٍ يعقلون . بل اتـّبـع الذين ظلموا أهواءهم بغيرِ عِلمٍ ، فَمَنْ يهدي مَنْ أضَلّ اللهُ ، وما لهم من ناصرين)[3] . وقال تعالى : (وقد فَصّل لكم مـــا حَرّم عليكُم إلّا ما اضطُررتُم اليه . وإنّ كثيراً ليُضِلّون بأهوائهم بغير

---

(١) سورة القصص ، ٢٨ ، الآية ٥٠ .

(٢) سورة القصص ، ٢٨ ، الآية ٥٠ .

(٣) سورة الروم ، ٣٠ ، الآيات ٢٨ ، ٢٩ .

علم . إنّ ربّك هو أعْلَمُ بالمعتدين)[١] . وقال تعـــالى : (قُلْ يا أهلَ الكتاب ، لا تَغْلوا في دينكم غير الحقّ ، ولا تتّبعوا أهواءَ قومٍ قد ضَلّوا من قَبْلُ وأضلّوا كثيراً ، وضَلّوا عن سواء السبيل)[٢] . وقـال تعالى : (ولن ترضى عنك اليهودُ ولا النصارى حتى تتّبعَ مِلّتهم . قُلْ إنّ هُدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعتَ أهواءَهم بعدَ الذي جاءَك من العلم ما لَكَ من الله من وليٍّ ولا نصير)[٣] . وقـال في الآية الأخرى : (ولئنِ اتّبعْتَ أهواءَهم من بَعْدِ مـا جاءَك من العلم (٨ آ) إنّك إذاً لمن الظالمين)[٤] . وقال تعالى : (وأنِ احكُمْ بينهم بمـا أنزلَ اللهُ ، ولا تتّبعْ أهواءهم ، واحذرهُم أن يَفْتِنوك عن بعض ما أنزلَ الله إليك)[٥] .

ولهذا كان مَنْ خرج عن موجب الكتـاب والسُنّة ، من المنسوبين إلى العلماء والعبّاد ، يُجعل من أهل الأهواء ، كما كان السَلَف رحمهم الله يسمّونهم « أهل الأهواء » .

وذلك أنّ كلّ مَنْ لم يتّبع العلم فقد اتبع هواه . والعلم بالدين لا يكون إلّا بهُدى الله الذي بعث به رسولَه ﷺ. ولهذا قال الله تعالى في موضع : (وإنّ كثيراً ليُضلّون بأهوائهم بغير علم)[٦] ، وقـال في موضع آخر : (ومَنْ

---

(١) سورة الأنعام ، ٦ ، الآية ١١٩ .
(٢) سورة المائدة ، ٥ ، الآية ٧٧ .
(٣) سورة البقرة ، ٢ ، الآية ١٢٠ .
(٤) سورة البقرة ، ٢ ، الآية ١٤٥ .
(٥) سورة المائدة ، ٥ ، الآية ٤٩ .
(٦) سورة الأنعام ، ٦ ، الآية ١١٩ .

أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدى من الله) [١] .

[حب الانسان وبغضه يجب أن يكونا موافقين لأمر الله ورسوله]

فالواجب على العبد أن ينظر في نفس حبّه وبغضه ، ومقدار حبّه وبغضه ، هل هو موافق لأمر الله ورسوله ؟ وهو هُدى الله الذي أنزله على رسوله ﷺ ، بحيث يكون مأموراً بذلك الحبّ والبغض ، لا يكون متقدّماً فيه بين يديْ الله ورسوله . فإن الله تعالى قد قال : (يا أيّها الذين آمنوا لا تُقَدّموا بين يدي الله ورسوله) [٢] .

ومَنْ أحبّ أو أبغض قبل أن يأمرَه الله ورسوله ففيه نوعٌ من التقدّم بين يديْ الله ورسوله . ومجرّد الحبّ والبغض هوى ، لكنّ المحرّم منه اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله . ولهذا قال الله لنبيّه داود : (ولا تتّبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله ، إن الذين يَضِلّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديد) [٣].

فأخبر أنّ من اتّبع هواه أضلّه ذلك عن سبيل الله . وسبيلُ الله هو هُداه الذي بعث به رسولَه ، وهو السبيل اليه (٨ ب) .

[ما هو العمل الحسن]

وتحقيق ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من أوجب الأعمال

---

(١) سورة القصص ، ٢٨ ، الآية ٥٠ .
(٢) سورة الحجرات ، ٤٩ ، الآية ١ .
(٣) سورة ص ، ٣٨ ، الآية ٢٦ .

وأفضلها وأحسنها . وقد قال تعالى : (لِيَبلوَكم أيّكم أحسن عملاً)[1] . وهو كما قال الفُضَيْل بن عياض[2] ، رحمه الله : أخلصه وأصوبه . فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل ، حتى يكون خالصاً صوابا . والخالصُ أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السُنّة . فالعمل الصالح لا بُدّ أن يُراد به وجه الله تعالى ، فإنّ الله تعالى لا يقبل من العمل إلّا ما أريد به وجهه وحده ، كما في الحديث الصحيح عن أبي هُرَيْرة عن النبيّ ﷺ قال : « يقولُ الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . مَنْ عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريءٌ منه ، وهو كلّه لِلّذي أشرك »[3] .

وهذا هو التوحيد الذي هو أصلُ الاسلام . وهو دين الله الذي بعث به جميع رسله . وله خُلق الخَلْقُ ، وهو حقّه على عباده أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً .

والعمل الصالح الذي أمر الله به ورسوله هو الطاعةُ . فكل طاعة عمل صالح ، وهو العمل المشروع المسنون ، لأنه هو المأمور به أمرَ ايجاب او استحباب . فهو العمل الصالح ، وهو الحسن، وهو البِرّ ، وهو الخير . وضدّه

---

(١) سورة الملك ٦٧ ، الآية ٢ .

(٢) من أكابر العلماء الصلحاء ، ثقة في الحديث ، سكن مكة وتوفي بها سنة ١٨٧ هـ . من كلامه : من عرف الناس استراح . (الاعلام ٥/٣٦٠) .

(٣) رواه ابن ماجه : من باب الرياء والسمعة ٢/٢٧٥ ؛ وانظر كتاب الأحاديث القدسية ١/٢٩١ .

المعصية ، والعمل الفاسد ، والسيّئة ، والفجور والظلم والبغي .

ولما كان العملُ لا بُدّ فيه من شيئيْن : النيّة والحركة ، كما قال النبيّ ﷺ : « أصـــدق الأسماء حارث وهمّام » ، فكلّ أحد حارثٌ همّـام ، له عمل ونيّة . لكنّ النيّة المحمودة التي يقبلها الله (٩ آ) ويثيبُ عليها هي أن يُراد الله وحدَه بذلك العمل .

والعمل المحمود هو الصالح ، وهو المأمور به . ولهذا كان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يقولُ في دُعائه : « اللهم اجعل عملي كلّه صالحـــاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئاً » .

وإذا كان هذا حدُّ كلّ عمل صالح ، فالأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون كذلك . هذا في حق الآمر الناهي بنفسه .

[العمل لا يكون الا بعلم وفقه]

ولا يكون عمله صالحـاً إنْ لم يكن بعلمٍ وفقه . كما قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : « مَنْ عَبَد الله بغير علم كان يُفسد أكثر مما يُصلح » . وكما في حديث مُعاذ بن جَبَل رضي الله عنه « العلم امام العمل ، والعمل تابعه » . وهذا ظاهر . فإنّ القصد والعمل إن لم يكن بعلمٍ كان جهلا ، وضلالاً واتّباعاً للهوى كما تقدم . وهذا هو الفرق بين أهل الجاهليّة وأهل الاسلام . فلا بُدّ من العلم بالمعروف والمنكر ، والتمييز بينهما ، ولا بُدّ من العلم بحال المأمور وحال المنهي .

ومن الصلاح أن يأتيَ بالأمر والنهي على الصراط المستقيم . والصراط المستقيم أقربُ الطرق ، وهو الموصل الى حصول القصد .

[لا بد في الأمر والنهي من الرفق والحلم والصبر]

ولا بُدّ في ذلك من الرفق ، كما قال النبيّ ﷺ : « ما كان الرفقُ في شيء إلّا زانه ، ولا كان العُنْف في شيءٍ إلّا شانَه »[1] . وقال ﷺ : « إن الله رفيق يحبّ الرفق في الأمـــر كلّه ، ويُعطي عليه مـــا لا يُعطي على العُنْف » (٩ ب)[2] .

ولا بُدّ أيضاً أن يكون حليماً ، صبوراً على الأذى . فإنّه لا بُدّ أن يحصل له أذىً ، فإنْ لم يحلم ويصبر يُفسد أكثر مما يُصلح . كما قال لقمان لابنه : (وأْمُرْ بالمعروف ، وانْهَ عن المنكر ، واصبرْ على ما أصابك ، إنّ ذلك من عَزْمِ الأمور)[3] .

ولهذا أمر الله الرُسُل، وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالصبر. كقوله لخاتم الرسل ﷺ ، بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة . فإنّه أوّل مـــا أرسل أُنزلت عليه سورةُ (يا أيّهـــا المدّثّـر) بعد أن أُنزلت سورة (إقرأ) التي بها نُبِّيء . فقال الله تعـــالى : (يا أيّها المدّثّر ، قم فأنْذِرْ ، ورَبَّك فكبِّرْ ، وثيابَك فطَهِّرْ ، والرُّجْزَ فاهجُرْ ، ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ ،

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر ، باب الرفق ، عن عائشة ولفظه : إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » ٢٠٠٤/٤ .

(٢) رواه مسلم في كتاب البر ، باب الرفق . ولفظه عن عائشة : يا عائشة ! إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على سواه » ٢٠٠٤/٤ ، وانظر ابن ماجه ١٢١٦/٢ .

(٣) سورة لقمان ، ٣١ ، الآية ١٧ .

ولربّك فاصبِرْ)[١] . فافتتح آيات الإرسال الى الخَلْق بالأمر بالإنذار[٢] ، وختمها بالصبر . ونفس الإنذار أمرٌ بالمعروف ونهي عن المنكر . فعُلِم أنّه يجب بعده[٣] الصبر. وقال تعالى: (واصبرْ لحُكْمِ ربّك، فإنّك بأعيننا[٤]. وقال تعالى : (فاصبرْ على ما يقولون ، واهجُرْهم هَجْراً جميلا)[٥] ، وقال : (فاصبرْ كما صَبَر اولو العَزْم من الرُسُل)[٦] ، وقال: (فاصبِرْ لحكم ربّك، ولا تكن كصاحب الحوت)[٧] ، وقال: (واصبرْ وما صبرُك إلّا بالله) [٨]، وقال : (واصبر فإنّ الله لا يُضيع أجْرَ المحسنين)[٩] .

فلا بدّ من هذه الثلاثة: العلمُ، والرفق ، والصبر . العلم قبل الأمر والنهي، والرّفق معه ، والصبر بعده . وإنْ كان كلٌّ من الثلاثة لا بُدّ (١٠ آ) أن يكون مستصحباً في هذه الأحوال .

وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السَلَف ، ورووه مرفوعاً ، ذكره القاضي ابو يعلى في « المعتمد »[١] : « لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلّا مَنْ كان

---

(١) سورة المدثر ، ٧٤ ، الآيات ١ — ٧ .
(٢) ف : « بالنذارة » .
(٣) ف : « بعد ذلك » .
(٤) سورة الطور ، ٥٢ ، الآية ٤٨ .
(٥) سورة المزمل ، ٧٣ ، الاية ١٠ .
(٦) سورة الأحقاف ، ٤٦ ، الآية ٣٥ .
(٧) سورة القلم ، ٦٨ ، الاية ٤٨ .
(٨) سورة النحل ، ١٦ ، الاية ١٢٧ .
(٩) سورة هود ، ١١ ، الاية ١١٥ ، وفي ف الاية ١١٦ خطأ .

فقيهاً فيما يأمر به ، فقيهاً فيما ينهى عنه ، رفيقاً فيما يأمرُ به ، رفيقاً فيما ينهى عنه ، حليماً فيما يأمر به ، حليماً فيما ينهى عنه » .

[صعوبة هذه الشروط]

وليُعلمْ أنّ اشتراط هذه[2] الخصال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ممـــا يوجب الصعوبة [3] على كثير من النفوس ، فيظنّ أنه بذلك يسقط عنه فَيَدَعُه ، وذلك مما يضرّه أكثر ممـــا يضرّه الأمرُ بدون هذه الخصال ، أو أقلّ. فإن ترك الأمر الواجب معصية، وفعل ما نهى الله عنه في الأمر معصية. فالمنتقل من معصية الى معصية كالمستجير من الرمضاء بالنار، أو كالمنتقل من دين باطل الى دين باطل قد يكون الثاني شرّاً من الأوّل ، وقد يكون دونه ، وقد يكونان سواء . فهكذا تجد المقصّر في الأمر والنهي ، والمعتدي فيه قد يكون ذنب هذا أعظم ، وقد يكون ذنب ذاك أعظم ، وقد يكونان سواء .

[المعاصي سبب المصائب ، والطاعة سبب النعمة]

ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق ، وفي أنفسنا ، وبما شهد به في كتابه — أنّ المعاصي سبب المصائب . فسيئات المصائب والجزاء : هي[4] من سيئات الأعمـــال . وأنّ الطاعة سبب النعمة . فإحسان العبد العمل سببٌ

---

(١) في اصول الفقه . انظر كشف الظنون ٢/١٧٣٢ .

(٢) ف : « وليعلم ان الأمر بهذه الخصال » .

(٣) ف : « صعوبته » .

(٤) ساقطة من ف .

لإحسان الله قال تعالى : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسَبَتْ أيديكم ، ويعفو عن كثير)[١] ، وقال تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله ، (١٠ ب) وما أصابك من سيئة فمن نفسك)[٢] ، وقال تعالى : (إن الذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنّما استزلّهمُ الشيطانُ ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا اللهُ عنهم)[٣] ، وقال تعالى : (أوَ لمّا أصابتكم مصيبةٌ قد أصبتُمْ مِثْلَيْها قلتم : أنّى هذا ؟ قُلْ هو من عند أنفسكم)[٤] ، وقال : (أوْ يوبِقْهُنّ بما كسبوا ، ويَعْفُ عن كثير)[٥] ، وقال : (وإنْ تُصِبْهم سيّئةٌ بما قدّمتْ أيديهم فإنّ الانسانَ كفور)[٦] ، وقال تعالى : (وما كان اللهُ لِيُعذّبهم وأنتَ فيهم ، وما كان اللهُ مُعذّبَهم وهم يستغفرون)[٧] .

[ما عاقب الله به الامم السابقة لماصيهم]

وقد أخبر اللهُ سبحانه بما عاقب به أهل السيّئات من الأمم ، كقوم نوحٍ ، وعادٍ ، وثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب مَدْيَن ، وقوم فِرْعَون – في الدنيا . وأخبر بما سيُعاقبهم به في الآخرة . ولهذا قال مؤمن آل فرعون : (يا قومِ ، إنّي أخافُ عليكم مِثْلَ يوم الأحزاب ، مِثْلَ دأب قَوْمِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين من بعدهم ، وما الله يُريدُ ظلماً للعباد . ويا قومِ إنّي أخاف عليكم يوم

---

(١) سورة الشورى ، ٤٢ ، الاية ٣٠ .

(٢) سورة النساء ، ٤ ، الاية ٧٩ .

(٣) سورة آل عمران ، ٣ ، الاية ١٥٥ .

(٤) سورة آل عمران ، ٣ ، الاية ١٦٥ .

(٥) سورة الشورى ، ٤٢ ، الاية ٣٤ .

(٦) سورة الشورى ، ٤٢ ، الاية ٤٨ .

(٧) سورة الأنفال ، ٨ ، الاية ٣٣ .

التَّنادِ ، يوم تـُوَلـّون مُدبرين ما لكم من الله من عاصم . ومَنْ يُضلِلِ الله فما له من هاد) [١] ، وقال تعالى : (كذلك العذابُ ، ولعذابُ الآخرة أكبرُ لو كانوا يعلمون)[٢] وقـال : (سنعذّبُهم مرّتيْن ، ثم يُرَدّون الى عذاب عظيم) [٣] . وقال : (ولنذيقنـّهم من العذاب الأدنى دون العذابِ الأكبر ، لعلـّهم يَرْجِعون)[٤] ، (١١ آ) وقال : (فارتقِبْ يوم تأتي السماءُ بدُخانٍ مُبين — الى قوله : يوم نَبْطِشُ البطْشَةَ الكبرى ، إنـّا منتقمون) [٥] .

[عقوبة اهل السيئات في الدنيا والاخرة]

ولهذا يذكر اللهُ في عامّة سُوَر الإنذار ما عاقب به أهـلَ السيّئات في الدنيا ، وما أعدّه لهم في الآخرة . وقد يذكر في السورة وعدَ الآخرة فقط ، إذْ عذاب الآخرة أعظم ، وثوابها أعظم ، وهي دارُ القرار . وإنما يذكر ما يذكره من الثواب والعقاب تَبَعاً ، كقوله في قصّة يوسف : (وكذلك مكـّنـّا ليوسف في الأرضِ يتبوّأُ منها حيث يَشاء ، نُصيب برحمتنا مَنْ نشاء ، ولا نُضيع أجرَ المحسنين. وَلأجْرُ الآخرة خيرٌ لِلـّذين آمنوا وكانوا يتـّقون)[٦]، وقال : (فآتاهم اللهُ ثواب الدنيـا وحُسْنَ ثواب الآخرة) [٧] ، وقال : (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظُلموا لنُبوّأنّهم في الدنيـا حسنةً ،

(١) سورة غافر ، ٤٠ ، الايات ٣٠ — ٣٣ .
(٢) سورة السجدة ، ٦٨ ، الاية ٣٣ .
(٣) سورة التوبة ، ٩ ، الاية ١٠١ .
(٤) سورة السجدة ، ٣٢ ، الاية ٢١ .
(٥) سورة الدخان ، ٤٤ ، الايات ١٠ — ١٦ .
(٦) سورة يوسف، ١٢ ، الايات ٥٦—٥٧ .
(٧) سورة آل عمران ، ٣ ، الاية ١٤٨ .

وَلأجرُ الآخرة أكبر، لو كانوا يعلمون. الذين صبروا وعلى ربّهم يتوكلون)[1]، وقال عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام : (وآتيْناه أجرَه في الدنيا ، وإنّه في الآخرة لمن الصالحين)[2] .

وأمّا ذكره لعقوبة الدنيا والآخرة ففي سورة النازعات ، إذ قال : (والنازعاتِ غَرْقا ، والناشطات نشْطا — ثم قال : يوم ترجُف الراجفةُ تتبعُها الرادفة) ، فذكر القيامه مُطلقاً : ثم قال : (هل أتاك حديثُ موسى ، إذْ ناداه ربُّه بالوادي المقدّسِ طُوى . اذهبْ (١١ ب) إلى فرعون إنه طغى — الى قوله : إنّ في ذلك لَعبرةً لمن يخشى) ، ثم ذكر المبدأ والمعاد مُفَصّلاً فقال : (أأنتم أشدّ خَلْقاً أم السماءُ بناها — الى قوله : فإذا جاءت الطامّة الكبرى ، يوم يتذكرّ الانسانُ ما سعى ، وبُرِّزَتِ الجحيمُ لمن يرى ، فأمّا مَنْ طغى ، وآثَرَ الحياة الدنيا ، فإنّ الجحيم هي المأوى)[3] . الى آخر السورة .

وكذلك في سورة المُزّمّل ذكر قوله : (وذَرْني والمكذّبين أولي النعمة ومهّلْهُم قليلاً ، إنّ لدينا أنكالاً وجحيما ، وطعاماً ذا غُصّة وعذاباً أليما ، — الى قوله : كما أرسلنا الى فرعون رسولاً ، فعصى فرعونُ الرسولَ ، فأخذناه أخذاً وبيلا)[4] .

وكذلك في سورة الحاقّة ذكر قصص الأمم كثمود ، وعاد ، وفرعون ،

---

(١) سورة النحل، ١٦ ، الايات ٤١ — ٤٢ .
(٢) سورة النحل ، ١٦ ، الاية ١٢٢ .
(٣) سورة النازعات ، ٧٩ ، الايات ١ — ٤١ .
(٤) سورة المزّمل ، ٧٣ ، الايات ١١ — ١٦ .

ثم قال تعالى : (فإذا نُفخ في الصور نفخة واحدة ، وحُمِلت الأرض والجبال فدُكّتا دكّةً واحدة) [١] الى تمام ما ذكره من أمرِ الجنّة والنار .

وكذلك في سورة « ن والقلم » ذكر قصة أهل البستان الذين منعوا حقّ أموالهم وما عاقبهم به . ثم قال : (كذلك العذاب ، ولَعَذابُ الآخرة أكبرُ لو كانوا يعلمون) [٢] .

وكذلك في سورة التغابن قال : (ألَمْ يأتكم نبأ الذين كفروا من قبلُ ، فذاقوا وبالَ أمرهم ، ولهم عذابٌ أليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلُهم بالبيّنات ، فقالوا : أبَشَرٌ يهدوننا ؟ فكفروا وتولّوا ، واستغنى الله ، والله غنيٌّ حميد) ، ثم قال تعالى : (زعم الذين كفروا أنْ لن يُبعثوا ، قل : بلى ، وربّي (١٢ آ) لتُبْعَثُنّ ، ثم لتُنَبّؤُنّ بما عملتم ، وذلك على الله يسير) [٣] .

وكذلك في سورة « ق » [٤] ذكر حال المخالفين للرسل ، وذكر الوعد والوعيد في الآخرة ، وكذلك في سورة « القمر » [٥] ذكر هذا وهذا ، وكذلك في سورة « حم » مثل « حم غافر [٦] » و « السجدة » [٧] ، و « الزخرف » [٨]

---

(١) سورة الحاقّة ، ٦٩ ، الايات ١٢ — ٣٧ .
(٢) سورة القلم ، ٦٨ ، الاية ٣٣ .
(٣) سورة التغابن ، ٦٤ ، الايات ٥ — ٧ .
(٤) السورة الخمسون . أنظر الايات ١٢ — ٣٠ .
(٥) السورة الرابعة والخمسون . انظر الايات ٩ — ٥٥ .
(٦) السورة الأربعون .
(٧) السورة الثانية والثلاثون .
(٨) السورة الثالثة والأربعون .

و « الدخان » [1] ، وغير ذلك مما لا يحصى .

[اول ما نزل من القرآن الوعد والوعيد]

فإن التوحيد والوعد والوعيد من أوّل ما أُنزِل، كما في صحيح البُخاري[2] عن يوسف بن ماهَك [2] قال : « إنّي عند عائشة أمّ المؤمنين رضيَ اللهُ عنها ، اذ جاءها عراقيّ ، فقال : أيّ الكَفَن خيرٌ؟ قالت : ويحك ، وما يضرُّك؟ قال يا أمّ المؤمنين، أريني مصحفك. قالت: لِمَ ؟ قال : لعلّي أؤلّف القرآن عليه ، فإنّه يُقرأ غيرَ مؤلّف . قالت : وما يضرُّك أيّهُ قرأتَ قَبْلُ ، إنّما نزل أوّل ما نزل منه سورةٌ من المفصّل فيها ذكرُ الجنّة والنار . حتى إذا ثاب الناسُ الى الاسلام نزل الحلالُ والحرام . ولو نزل أوّلَ شيءٍ : لا تشربوا الخمرَ ، لقالوا : لا نَدَع الخمر أبداً . ولو نزل لا تزْنوا ، لقالوا : لا نَدَع الزنا أبدا . لقد نزل بمكّة على محمد ﷺ وإنّي لجاريةٌ ألعبُ : (بل الساعةُ مَوعِدهُم والساعةُ أدْهى وأَمَرُّ) [3] ، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلّا وأنا عنده . قال : فأخرجتْ له المصحف ، فأملَتْ عليه آي السورة » . (١٢ ب)

[اختلاف الناس في الامر والنهي سبب التفرق والاختلاف]

وإذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشرّ والعدوان ، فقد يُذنب

---

(١) السورة الرابعة والأربعون .

(٢) أنظر صحيح البخاري ٦/١٥٢ باب تأليف القرآن (طبعة مكتبة النهضة الحديثة بمكة).

(٣) يوسف بن ماهك (بفتح الهاء) الفارسي . تابعيٌ ثقة عدل (انظر تهذيب التهذيب ١١/٤٢١) .

(٤) هذه الاية من سورة القمر ، ٥٤ ، رقم ٤٦ .

الرجلُ والطائفة ، ويسكت آخرون عن الأمر والنهي ، فيكون ذلـــك من ذنوبهم، وينكر عليهم آخرون إنكاراً منهيـاً عنه ، فيكون ذلك من ذنوبهم . فيحصل التفرّق والاختلاف والشرّ . وهذا من أعظم الفـــتن والشرور قديماً وحديثاً ، إذ الانسانُ ظلوم جهول . والظلم والجهل أنواع ، فيكون ظلم الأول وجهله من نوع ، وظلم كلّ من الثاني والثالث وجهلها من نوع آخر وآخر .

ومن تدبّر الفتنَ الواقعة رأى سببها ذلـــك . ورأى أنّ ما وقع بين أمراء الأمّة وعلمائها ، ومَنْ تبعهم من العامّة في الفتن – هذا أصلها . ويدخل في ذلك أسباب الضلال والغيّ : الأهواء الدينيّة والشهوانيّة ، والبِـدَع في الدين ، والفجور في الدنيا . وذلك أن اسباب الضلال والغيّ التي هي البِـدَع في الدين والفجور في الدنيا ، مشتركة تعمّ بني آدم ، لِما فيهم من الظلم والجهل .فيُذنب بعض الناس بظلم نفسه وغيْره ، بفعل الزنا أو التلوّط أو غـيره ، أو بشرب الخمر ، أو ظلم في المال بخيانة أو سرقة أو غصب ، ونحو ذلك .

[المعاصي مشتهاة في الطباع]

ومعلوم أنّ هذه المعاصي ، وإنْ كانت مستقبحة مذمومة في العقل والدين، فهي مُشتهاة في الطّباع . ومن شأن النفوس أنها لا تحبّ اختصاص غيرهـــا بشيءٍ وزيادته عليها ، لكن تريد أن يحصل لها ما حصل له ، وهذا هو الغبطة التي هي (١٣ آ) أدنى نوعيْ الحسد . فهي تريد الاستعـــلاء على الغير ، والاستئثار دونه ، أو تحسده وتتمنّى زوال النعمة عنه ، وإنْ لم يحصـــل . ففيها من إرادة العلوّ والفساد والاستكبار والحسد ما يتقاضاها أن تختصّ عن عن غيرها بالشهوات ، فكيف إذا رأت الغير قد استأثر عليها بذلك ،واختصّ به دونها ؟ فالمعتدل منهم في ذلك : الذي يحب الاشتراك والتساوي ، وأمّـا الآخر فظلومٌ حسود .

وهاذان يقعان في الأمور المبـــاحة ، والأمور المحرّمة لحق الله . فما كان جنسه مُباحاً ، من أكل وشرب ، ونــكاح ، ولباس ، وركوب ، وأموال ، إذا وقع فيها الاختصاص حصل بسببه الظلم والبخل والحسد .

[الشح سبب الغرور]

وأصلُها الشُحّ ، كما في الصحيح عن النبيّ ﷺ أنه قال : « إيّاكم والشحّ ، فإنه أهلك مَنْ كان قبلكم . أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالظــلم فظلموا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » [1] ولهذا قال الله تعالى في وصف الأنصار : (والذين تبوّأوا الدارَ والايمان من قَبْلهم — أي من قبل المهاجرين — يحبّون مَنْ هاجر اليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا — أي لا يجدون الحسد ممّـــا أوتي إخوانهم من المهاجرين — ويُؤثرون على أنـفُسِهِم ولو كان بهم خَصَاصة — ثم قال : ومَنْ يُوقَ شحّ نفسِه فأولئك هم المفلحون) [2] .

وسُمع عبد الرحمن بن عَوْف ، وهو يطوفُ بالبيت يقول : « ربِّ ، قِني شُحّ نفسي . ربِّ قِني شُحّ نفسي » . فقيل له في ذلـــك ، فقال : « إذا وُقيت شُحّ نفسي (١٣ ب) فقد وقيتُ البخلَ والظـــلم والقطيعة » ، أو كما قال .

فهذا الشُحّ — الذي هو شدّة حرص النفس — يوجب البخل بمنع ما عليه ، والظلم بأخذ مال الغـير ، ويوجب قطيعة الرحم ، ويوجب الحسد ، — وهو كراهة ما اختص به الغير وتمنّي زواله . والحسدُ فيه بخل وظلم ، فإنه بخـل

---

(١) أخرجه الدارمي ، زكاة ، ٤٦ — وانظر مسند أحمد ٢/١٦٠ .

(٢) سورة الحشر ، ٥٩ ، الاية ٩ .

بما أعطيه عن غيره ، وظلم بطلب زوال ذلك عنه .

فإذا كان هذا في جنس الشهوات المباحة ، فكيف بالمحرّمة ؟ كالزنا وشرب الخمر ونحو ذلك . وإذا وقع فيها إختصاصٌ فإنه يصير فيها نوعان : أحدُهما بُغْضُها لما في ذلك من الاختصاص والظلم ، كما يقع في الأمور المباحة الجنس ، والثاني بُغْضُها لما في ذلك من حق الله .

[انواع الذنوب]

ولهذا كانت الذنوب ثلاثة أقسام :

أحدها : ما فيه ظلم للناس ، كالظلم بأخـــذ الأموال ، ومنع الحقوق ، والحسد ، ونحو ذلك .

والثاني : ما فيه ظلم للنفس فقـــط ، كشرب الخمر والزنا ، اذا لم يتعدّ ضررهما .

والثالث : ما يجتمع فيه الأمران ، مثل أن يأخذ الحاكم والأمير [١] أموال الناس ليزني بها ويشرب الخمر ويرتكب الفواحش [٢] . ومثل أن يزني بمن يرفعه على الناس بذلك السبب ويضرّهم ، كما يقع ممن يحب النساء والصبيان ، وقد قال الله تعالى : (قُلْ إنّما حرّمَ ربّي الفواحشَ ما ظهر منها وما بَطَنَ ، والإثمَ والبغْيَ بغير الحقّ ، وأن تُشركوا بالله ما لم يُنـزِّل به سُلطاناً ، وأن

---

(١) ف « ان يأخذ المتولى .. »

(٢) قوله « ويرتكب الفواحش » ساقط من ف .

تقولوا على الله (١٤ آ) ما لا تعلمون)[١] .

[استقامة أمور الناس بالعدل]

وأمور الناس إنّما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق ، وإنْ لم تشترك في إثم . ولهذا قيل : إنّ الله يُقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيمُ الظالمة وإنْ كانت مسلمة .

ويُقال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر ، ولا تدوم مع الظلم والاسلام .

وقد قال النبيّ ﷺ : « ليس ذنبٌ أسرعَ عقوبة من البغي وقطيعة الرحم »[٢] . فالباغي يُصْرَعُ في الدنيا ، وإن كان مغفوراً له مرحوماً .

وذلك أن العدل نظام كلّ شيء. فإذا أُقيم أمرُ الدنيا بالعدل قامت ، وإن لم يكن لصاحبها من خَلاَق ، ومتى لم تقم بالعدل لم تقُم ، وإنْ كان لصاحبها من الايمان ما يُجزى به في الآخرة .

[طبيعة النفس : العلو والحسد والظلم]

والنفس فيها داعي الظلم لغيرها بالعلوّ عليه ، والحسد له ، والتعدّي عليه في حقّه ، وفيها داعي الظلم لنفسها بتناول الشهوات القبيحة ، كالزنا وأكل الخبائث . فهي قد تظلمُ مَنْ لا يظلمها ، وتؤْثر هذه الشهوات وإن لم يفعلْها

---

(١) سورة الأعراف ، ٧ ، الاية ٣٣ .

(٢) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد ، باب البغي : ولفظه : « وأسرع الشرّ عقوبة البغي وقطيعة الرحم » ٢/١٤٠٨ .

غيرُها . فإذا رأتْ نظراءها قد ظلموا أو تناولوا هذه الشهوات صار داعي هذه الشهوات أو الظلم فيها أعظم بكثير .

وقد يصير ويهيج ذلك لها من بغض ذلك الغير وحسده وطلب عقابه ، وزوال الخير عنه ، ما لم يكنْ فيها قبل ذلك. ولها حجّةٌ عند نفسها من جهة العقل والدين بكوْنِ ذلك الغير قد ظلم نفسه والمسلمين ، (١٤ ب) وأن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر والجهاد على ذلك من الدين .

[انواع الناس في ذلك]

والناسُ هنا ثلاثةُ أقسام : قومٌ لا يقومون إلاّ في أهواء نفوسهم ، فلا يرضَوْن إلاّ بما يُعْطَوْنَه ، ولا يغضبون إلاّ لما يُحرمونه . فإذا أُعطي أحدُهم ما يشتهيه من الشهوات الحلال والحرام : زال غضبه ، وحصل رضاه . وصار الأمرُ الذي كان عنده منكراً ، يَنْهى عنه ويُعاقبُ عليه ، ويذمّ صاحبه ويغضب عليه ، صار فاعلاً له ، شريكاً فيه ، ومُعاوناً عليه ، ومُعادياً لمن ينهى عنه ويُنكر عليه . وهذا غالب في بني آدم . ترى الانسان يسمعُ من ذلك ما لا يحصيه إلاّ الله . وسببُه أنّ الانسان ظلومٌ جهول . فلذلك لا لا يعدل . بل ربمّا كان ظالماً في الحاليْن . يرى قوماً يُنكرونَ على الحاكم والأمير ظلمَه لرعيّته واعتداءَه عليهم . فيُرْضي اولئك المنكرين ببعض الشيء من منصب أو مال ، فينقلبون أعواناً له . وأحسنُ أحوالهم أن يسكتوا عن الإنكار عليه .

وكذلك تراهم على مَنْ يشربُ الخمر ويزني ، ويَسمَعُ الملاهي ، حتى يُدخلوا أحدَهم معهم في ذلك ، أو يُرْضوه ببعض ذلك ، فتراه حينئذ قد صار عوْناً

لهم . وهؤلاء قد يعودون بإنكارهم الى أقبح من الحال التي كانوا عليها ، وقد يعودون الى ما هو دون ذلك أو نظيره .

وقوم يقومون قومة ديانة صحيحة ، يكونون في ذلك مخلصين لله ، مُصلحين فيما عملوه ، ويستقيم لهم ذلك ، حتى يصبروا على ما أوذوا. فهؤلاء همُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وهم من خير أمّةٍ أُخرجتْ للنّاس : يأمرون بالمعروف ، وينهَوْن عن المنكر ، ويؤمنون بالله (١٥ آ) .

وقوم يجتمع فيهم هذا وهذا ، وهم من غالب المؤمنين .

فَمَنْ فيه دينٌ وله شهوة يجتمع في قلبه ارادةُ الطاعـة وإرادة المعصية . وربما غلب هذا تارة وهذا تارة .

وهذه القسمة الثُلاثيّة كما قيل : الأنفُس ثلاثٌ : أمّارةٌ ، ولوّامـةٌ ، ومطمئنـّة .

فالأوّلون هم أهلُ النفس الأمّارة التي تأمر بالسوء .

والوسط هم أهل النفس المطمئنـّة التي يُقال لها (يا أيّتُها النفس المطمئنـّة ارجعي الى ربّك راضية مَرْضيّة . فادخلي في عِبادي ، وادخلي جنّتي) [١].

وهؤلاء هم أهلُ النفس اللوّامة ، التي تفعل الذنب ثم تلوم عليه ، وتتلوّن تارةً كذا وتارةً كذا ، وتخلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً . وهؤلاء يُرجى[٢] أن

---

(١) سورة الفجر ، ٨٩ ، الايات ٢٧ — ٣٠ .

(٢) قوله « وهؤلاء الى آخر الاية» ساقط من ف.

يتوب الله عليهم اذا اعترفوا بذنوبهم ، كما قال الله تعالى (وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم إنّ الله غفورٌ رحيم)[1] .

ولهذا لمّا كان الناس في زمن أبي بكر وعَمَر ، رضي الله عنهما ، وهما اللذان أُمِرَ المسلمون بالاقتداء بهما ، كما قال النبيّ ﷺ : « اقتدوا بالّلذَيْن من بعدي : أبي بكر وعُمَر »[2] ، لمّا كان الناسُ أقربَ عهداً بالرسالة ، وأعظمَ إيماناً وصلاحاً ، وأئمّتُهم أقوم بالواجب ، وأثبت في الطُمأنينة ، لم تقع فتنة . اذْ كانوا في حُكم القسم الوسط .

ولمّا كان في آخر خلافة عثمان ، وفي خلافة عليّ ، رضي الله عنهما ، كثُر القسمُ الثالث . فصار فيهم شهوةٌ[3] ، مع الايمان والدين . قد صار ذلك في بعض الولاة وبعض الرعايا . ثمّ كثُر ذلك بعدُ ، فنشأتِ الفتنةُ التي سببُها ما تقدّم ، من عدم تمحيص التقوى والطاعة في الطرفَيْن ، واختلاطها بنوعٍ من الهوى والعصبيّة[4] في الطَرَفين . وكلٌّ منهما متأوّل أنّه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وأنّه مع الحقوالعدل . ومع هذا التأويل نوعٌ من الهوى. ففيه نوعٌ من الظنّ وما تهوى الأنفُس ، وإن كانت إحدى الطائفتيْن أولى بالحق من الأخرى .

فلهذا يجب على المؤمن أن يستعين بالله ، ويتوكّل عليه في أن يَعْمُر قلبه

---

(١) سورة التوبة ، ٩ ، الاية ١٠٢ .

(٢) رواه الترمذي في المناقب ٢٧٠/٩ ؛ وابن ماجه في المقدمة ، واحمد في المسند ٣٨٢/٥.

(٣) ف « شهوة وشبهة »

(٤) ف « من الهوى والمعصية » .

بالايمان والتقوى ، ولا يُزيغُه ، ويُثَبِّتُه على الهدى ، ولا يتّبع الهوى ، كما قال تعالى (فلذلك فادْعُ ، واستَقِمْ كما أُمرتَ ، ولا تتّبع أهواءهم . وقُلْ : آمنتُ بما أنزلَ الله من كتاب ، وأُمرتُ لأعدِلَ بينكم . اللهُ ربُّنا وربكم)[1] .

[اختلاف الأمة في المقالات والعبادات وواجبها]

وهذا ايضاً حال الأمّة فيما تفرّقت فيه ، واختلفت في المقالات والعبادات. وهذه الأمور ممّا تعظُم بها المحنة على المؤمنين ، فإنهم محتاجون الى شيئين . الى دفع الفتنة التي ابتُلي بها نظراؤهم ، من فتنة الدنيا والدين ، عن نفوسهم ، مع قيام المقتضى لها . فإنّ معهم نفوساً وشياطين ، كما مع غيرهم . فمع وجود ذلك من نظائرهم يقوى المقتضى عندهم ، كما هو الواقع . فيبقى الداعي الذي في نفس الشيطان وشيطانه (١٦ آ) . ودواعي الخير كذلك ، وما يحصل من الداعي بفعل الغير والنظير .

فكم من الناس من لم يُرِد خيراً ولا شرّاً ، حتى رأى غيره – لا سيّما إنْ كان نظيره – يفعله ، ففعله . فإنّ الناسَ كأسرابِ القَطَا ، مجبولون على تشبّه بعضهم ببعض .

ولهذا كان المبتديء بالخير وبالشرّ له من الأجرِ والوزْرِ مثل مَنْ تبِعَهُ ، كما قال النبيّ ﷺ : مَنْ سَنّ سُنّةً حسنة فله أجرُها وأجْرُ مَنْ عمل بها الى

---

(١) سورة الشورى ، ٤٢ ، الاية ١٥ .

يوم القيامة ، من غَيْر أن ينقص من أجورهم شيئاً . ومَنْ سنَّ سنّة سيّئة فعليه وِزْرُها و وِزْرُ مَنْ عمل بها الى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً » [1] ، وذلك لاشتراكهم في الحقيقة ، وأنّ حُكمَ الشيء حكمُ نظيره ، وشِبْهُ الشيء منجذبٌ إليه .

فإذا كان هاذان داعيين قويّين ، فكيف اذا انضمّ اليهما داعيان آخران ؟.

وذلك أنّ كثيراً من أهل المُنكر يحبّون مَنْ يُوافقهم على ما هم فيه ، ويُبْغضون مَنْ لا يُوافقهم . وهذا ظاهر في الديانات الفاسدة ، من موالاة كلّ قوم لموافقيهم ومعاداتهم لمخالفيهم . وكذلك في أمور الدنيا والشهوات كثيراً ما يختار أهلُها ويُؤْثرون مَنْ يُشاركهم في أمورهم وشهواتهم . إما للمعاونة على ذلك ، كما في المتغلّبين من أهل الرياسات وقُطّاع الطريق ونحو ذلك ، وإمّا لتلذّذهم بالموافقة ، كما في المجتمعين على شرب خمر – مثلاً ، فإنّهم يحبّون أن يشرب كلّ مَنْ حضر عندهم، وإما لكراهتهم امتيازه عنهم بالخير (١٦ب) إمّا حسداً له على ذلك ، أو لئلا يعلو عليهم بذلك ويحمده الناس دونهم ، أو أو لئلّا يكون له عليهم حجّة ، أو لخوفهم من معاقبته لهم بنفسه أو بمن يرفع ذلك اليهم ، أو لئلا يكونوا تحت مِنّته وخَطَره ، ونحو ذلك من الأسباب . قال الله تعالى : (وَدَّ كثيرٌ من أهلِ الكتاب لو يردّونكم ، من

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة ، ولفظه : من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً . ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ، ووزر من عمل بها من بعده ...» ٢/٧٠٥ وانظر أيضاً صحيح مسلم ٤/٢٠٥٩ .

بعد إيمانكم كفّارا، حَسَداً من عند أنفسهم، من بعدما تبيّن لهم الحقّ)[1]، وقال تعالى في المُنافقين : (وَدّوا لو تكفُرون كما كَفَروا ، فتكونون سواءً)[2] . وقال عثمان بن عَفان رضي الله عنه : « وَدّت الزانية لو زنى النساءُ كلّهن » .

والمشاركةُ قد يختارونها في نفس الفجور ، كالاشتراك في شرب الخمر ، والكذب ، والاعتقاد الفاسد . وقد يختارونها في النوع الثاني كالزاني الذي يودّ أن يزني غيرُه، والسارق الذي يودّ أن يسرق غيرُه ايضاً ، لكن في غير العيْن التي زنى بها والتي سرقها .

وأما الداعي الثاني فقد يأمرون الشخص بمشاركتهم فيما هُم عليه من المُنكر ، فإنْ شاركهم وإلاّ عادوه وآذوه على وجهٍ قد ينتهي الى حدّ الإكراه .

ثم إنّ هاؤلآء الذين يختارون مشاركة الغير لهم في قبيح فعلهم ، أو يأمرونه بذلك ويستعينون به على ما يريدونه ، فإنهم متى شاركهم وعاونهم وأطاعهم انتقصوه واستخفّوا به ، وجعلوا ذلك حجّة عليه في أمور أخرى . (١٧ آ) وإنْ لم يُشاركهم عادوه وآذوه . وهذه حال غالب الظالمين القادرين .

وهذا الموجودُ في المنكر ، موجودٌ نظيره في المعروف ، وأبلغ منه ، كما

---

(١) سورة البقرة ، ٢ ، الاية ١٠٩ .

(٢) سورة النساء ، ٤ ، الاية ٨٩ .

قال اللهُ تعالى : (والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله) [1] ، فإنّ الإنسان فيه داعٍ يدعوه الى الايمان والعلم ، والصدق والعدل ، وأداء الأمانة . فإذا وُجد مَنْ يعمل ذلك مثله صار له داع آخر ، لا سيّما اذا كان نظيره ، لا سيّما مع المنافسة . وهذا محمودٌ حسَن .

فإنْ وُجد مَنْ يحبّ موافقته على ذلك ومشاركته له من المؤمنين والصالحين ، ومَنْ يُبغضه إذا لم يفعل ذلك : صار له داعٍ ثالث .

فإذا أمروه بذلك ووالوه على ذلك ، وعادوه وعاقبوه على تركه ، صار له داعٍ رابع .

[يجب مقابلة السيئات بالحسنات]

ولهذا يؤمر المؤمنون أن يُقابلوا السيّئات بضدّها من الحسنات ، كما يُقابل الطبيب المرض بضدّه . فيؤمرُ المؤمن بأن يُصلح نفسه ، وذلك بشيئيْن : بفعل الحسنات ، وترك السيئات . مع وجود ما ينفي الحسنات ويقتضي السيّئات . وهذه أربعة أنواع .

ويؤمَرُ أيضاً بإصلاح غيره بهذه الأنواع الأربعة بحسب قدرته وإمكانه . قال تعالى : (والعصر . إنّ الإنسان لفي خُسْر ، إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصبْر) [2] . ورُوي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال : «لو فكّر الناسُ كلّهم في سورة العصر لَكَفَتْهم». وهو كما

---

(١) سورة البقرة ، ٢ ، الاية ١٦٦ .

(٢) سورة العصر ، ١٠٣ ، الايات ١ — ٣.

قال . فإنّ الله تعالى أخبر فيها أنّ جميع الناس خاسرون ، إلاّ مَنْ كان في نفسه مؤمناً صالحاً ، ومع غيره موصياً بالحق ، موصياً بالصبر .

[عظم المحنة سبب لعلو الدرجة]

وإذا عظـُمَت المحنة ُكان ذلك للمؤمن الصالح سبباً لعلوّ الدرجة وعظيم الثواب [1] . كما ُسئل النبيُّ ﷺ : « أيّ الناس أشدُّ بلاءً ؟ قال : الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثـَلُ فالأمثل . ُيبْتَـلى الرجلُ على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيدَ في بلائه ، وإنْ كان في دينه رقـّة ُخفـّفَ عنه . وما يزالُ البلاء بالمؤمن حتى يمشي على وجــه الأرض وليس عليه خطيئة » [2] . وحينئذٍ فيحتاج من الصبر ما لا يحتاج اليه غيرُه . وذلك هو سببُ الإمامة في الدين . كما قال تعالى : (وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرنا لَما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون) [3] .

[لا بد من الصبر على فعل الحسن]

فلا ُبدّ من الصبر على فعل الحَسَن المأمور به ، وعلى ترك المحظور المنهى عنه . ويدخل في ذلك الصبْر على الأذى ، وعلى ما ُيقال ، والصبر على مـــا ُيصيبُه من المـكاره ، والصبْر عن البَطـَر عنـــد النـّعَم ، وغير ذلك من أنواع الصبْر .

---

(١) ف « وعظيم الاجر » .

(٢) انظر الدارمي ، كتاب الرقاق ، باب : اشد النـــاس بلاء ٢/٣٢٠ ؛ ومسند أحمد ١/١٧٢ .

(٣) سورة السجدة ، ٣٢ ، الاية ٢٤ .

[ولا بد من اليقين]

ولا يمكن العبد أن يصبر إنْ لم يكن له ما يطمئنّ به ويتنعّم به ويتغذّى به : وهو اليقين . كما في الحديث الذي رواه ابو بكر الصِدّيق رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنّه قال : « أيّها الناسُ ، سلوا الله اليقينَ والعافية . فإنّه لم يُعْطَ أحد بعد اليقين خيراً من العافية ، فَسَلوهما الله [1]» .

وكذلك إذا أمر (١٨ آ) غيرَه بحسن ، أو أحبّ موافقته له على ذلك ، أو نهى غيره عن سيّء فيحتاج أن يُحسن الى ذلك الغير إحساناً يحصل به مقصوده : من حصول المحبوب واندفاع المكروه . فإنّ النفوس لا تصبر على المرّ إلاّ بنوعٍ من الحلو . لا يُمكن غير ذلك . ولهذا أمر الله بتأليف القلوب، حتى جعل للمؤلّفة قلوبهم نصيباً في الصدقات . وقال تعالى لنبيّة ﷺ : (خُذ العفوَ، وامُرْ بالعُرْف وأعْرِضْ عن الجاهلين)[2]. وقال تعالى: (وتواصَوْا بالصبر وتواصَوْا بالمَرْحمة)[3]. فلا بُدّ أن يصبر ويرحم. وهذا هو الشجاعةُ والكرم .

ولهذا يقرنُ الله بين الصلاة والزكاة تارةً ، وهي الإحسانُ الى الخلق ، وبينها وبين الصبْر تارة .

ولا بُدّ من الثلاثة : الصلاة ، والزكاة ، والصبر . لا تقوم مصلحة المؤمنين

---

(١) رواه الترمذي ، ٩/٢٠٦ . ولفظه : « اسألوا الله العفو والعافية ، فإن أحداً لم يعطبعد اليقين خيراً من العافية » .

(٢) سورة الأعراف ، ٧ ، الاية ١٩٩ .

(٣) سورة البلد ، ٩٠ ، الاية ١٧ .

إلاّ بذلك في صلاح نفوسهم وإصلاح غيرهم، لا سيّما كلّما قويت الفتنة والمحنةُ. فإنّ الحاجة الى ذلك تكون أشدّ .

فالحاجةُ الى السماحة والصبر عامّة لجميع بني آدم ، لا تقوم مصلحة دينهم ولا دنياهم إلاّ بها . ولهذا فإن جميعهم يتمادحون بالشجاعة والكرم ، حتى إنّ ذاك عامة ما يمدح به الشعراء ممدوحيهم في شعرهم ، وكذلك يتذامّون بالبخل والجبن .

والقضايا التي يتّفقُ عليها عقلاء بني آدم لا تكون إلاّ حقّاً ، كاتفاقهم على مدح الصدق والعدل ، وذمّ الكذب والظلم . وقال النبيّ ﷺ (١٨ ب) لمّا سأله الأعرابُ حتى اضطروه الى سَمُرة[١]، فتعلّقتْ بردائه — فالتفتَ إليهم وقال : « والذي نفسي بيده ، لو أنّ عندي عدد هذه العِضاه نَعَماً لقسمتُه فيكم ، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ، ولا كذوبا » . لكنْ ينوّع ذلك بتنوّع المقاصد والصفات ، فإنّما الأعمالُ بالنيّات ، وإنّما لكلّ امريء ما نوى .

[ذم البخل والجبن]

ولهذا جاء الكتاب والسُنّة بذم البخل والجبن ، ومدح الشجاعة والسماحة في سبيل الله ، دون ما ليس في سبيله . فقال النبيّ ﷺ : « شرٌ ما في المرء شحٌّ هالع، وجُبنٌ خالع»[٢] . وقال: «مَنْ سيّدكم يا بني سلمة ؟ فقالوا: الجَدُّ بنُ قَيْس ، على أنّا نَزُنُّه بالبخل. فقال : وأيّ داءٍ أدوى من البخل؟»[٣] .

---

(١) نوع من شجر البادية .

(٢) رواه أحمد ٢/٣٠٢ — وأبو داود ، في الجهاد ، باب في الجرأة والجبن ،

(٣) رواه البخاري في الخمس ، ١٥ ، وفي المغازي ٧٣ .

وفي رواية : إنّ السيّد لا يكونُ بخيلاً ، بل سيّدكم الأبيض الجعد البَراء بن معرور »[1] .

وكذلك في « الصحيح » قولُ جابر بن عبدالله لأبي بكر الصِدّيق ، رضي الله عنهم : « إمّا أن تعطيني ، وإمّا أن تبخل عنّي . فقال : تقولُ وإمّا أن تبخل عنّي ؟ وأيُّ داءٍ أدوى من البخل ؟ » . فجعل البخلَ من أعظم الأمراض .

وفي « صحيح مسلم » عن سليمان بن ربيعة قال : قال عمر رضيَ الله عنه : « قَسَم النبيُّ ﷺ قَسْماً ، فقلتُ : يا رسول الله ! والله لَغَيْر هؤلاء أحقُّ منهم . فقال : إنّهم خيّروني بين أن يسألوني بالفُحش وبين أن يُبخّلوني ، ولستُ بباخل »[2]. يقول : إنهم سألوني مسألةً لا تصلُح ، فإنْ أعطيتُهم وإلاّ قالوا : هو بخيل (١٩ آ) . فقد خيَّروني بين أمريْن مكروهَيْن لا يتركوني من أحدهما: المسألة الفاحشة ، والتبخيل . والتبخيلُ أشدّ ، فأدفَعُ الأشدّ بإعطائهم .

[أنواع البخل]

والبُخل جنس تحته أنواع ، كبائر وغير كبائر .

قال الله تعالى : (ولا يحسبنّ الذين يبخَلون بما آتاهمُ اللهُ من فَضْلِه هو

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ١٠٤/٢ ، وتفسير القرطبي ١٥٩/٩ .

(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب من سأله بفحش وغلظة ، وفيه « ... إنهم خيروني أن يسألوني بالفحش أو يبخلوني ، فلست بباخل » الحديث ١٢٧ ، ٧٣٠/٢ .

خيراً لهم ، بل هو شرٌّ لهم . سيُطوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة)[1] ، وقال : (واعبدوا الله ، ولا تُشركوا به شيئاً ، وبالوالديْن إحساناً – الى قوله – إنّ الله لا يحبُّ مَنْ كان مُختالاً فخورا ، الذين يبخلون ويأمرون الناسَ بالبخل)[2] وقال تعالى : (ومـــا منَعَهم أن تُقبلَ منهم نفقاتُهم إلاّ أنهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاةَ إلاّ وهم كُسالى ، ولا يُنفِقون إلاّ وهم كارِهون)[3]، وقال : (فلمّا آتاهم من فضلهِ بخلوا به ، وتولّوْا وهم مُعْرِضون . فأعْقَبَهم نفاقاً في قلوبهم الى يوم يلقَوْنه) [4] ، وقـال : (ومَنْ يَبْخَلْ فإنما يبخلُ عن نفسه)[5] ، وقال : (فوَيْلٌ للمصلّين ، الذين هم عن صَلاتهم ساهون ، الذين يراؤن ويمنعون الماعون)[6]، وقال : (والذين يكنِزون الذهَبَ والفضّة ، ولا يُنفقونها في سبيل الله فبشّرْهُم بعذابٍ أليم . يومَ يُحْمى عليها في نار جهنّم فتُكْوى بها جِباهم وجُنوبُهم وظهورُهم ، هذا مـا كنَزْتُم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنِزون)[7] . وكثيرٌ من الآي في القرآن من الأمر بالإيتاء والإعطاء ، وذمّ مَنْ ترك ذلك ، كلّه ذم للبخل (١٩ ب) .

[ذم الجبن]

وكذلك ذمّه للجبن كثير ، في مثل قوله : (ومَنْ يُولّهم يومئذٍ دُبُرَه

---

(١) سورة آل عمران ، ٣ ، الآية ١٨٠ .
(٢) سورة النساء ، ٤ ، الايات ٣٦ ، ٣٧ ، وفي « ف » خطأ في رقم السورة والاية .
(٣) سورة التوبة ، ٩ ، الاية ٥٤ .
(٤) سورة التوبة ، ٩ ، الايات ٧٦ ، ٧٧ .
(٥) سورة محمد ، ٤٧ ، الاية ٣٨ .
(٦) سورة الماعون ، ١٠٧ ، الاية ٤ . والماعون : المعروف .
(٧) سورة التوبة ، ٩ ، الايات ٣٤ ، ٣٥ .

إلاّ متحرّفاً لقتال ، أو مُتحيّزاً الى فئة ، فقد باءَ بغَضَبٍ من الله ، ومأواه جهنّمُ وبئس المصير)[١] ، وقوله عن المنافقين : (ويحلفون بالله إنّهم لمنكم ، وما هُم مِنكم ، ولكنّهم قوم يَفرَقون . لو يجدون ملجأً أو مَغـارات أو مُدّخَلاً لَوَلّوا إليه ، وهم يَجْمَحون)[٢] ، وقوله: (فإذا أُنزِلت سورةٌ مُحكَمة وذُكر فيها القتالُ رأيتَ الذين في قلوبهم مَرَضٌ ينظُرون اليك نَظَرَ المغْشِيّ عليه من الموتِ)[٣] ، وقوله : (ألم ترَ الى الذين قيل لهم كُفّوا أيديَكم وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ . فلما كُتب عليهم القتالُ إذا فريقٌ منهم يخشَوْن الناسَ كخَشْيَة الله أو أشدّ خَشْيَةً . وقالوا : ربَّنا لِمَ كتبْتَ علينا القتالَ ؟ لولاأخّرْتَنا إلى أجلٍ قريب . قُلْ : متاعُ الدنيا قليلٌ ، والآخرةُ خيرٌ لمن اتّقى ، ولا تُظلمون فَتيلا)[٤] .

ومـا في القرآن من الحضّ على الجهاد والترغيب فيه ، وذمّ الناكلين عنه والتاركين له ، كلّه ذم للجبن .

[لا يتم صلاح بني آدم إلا بالشجاعة والكرم]

ولمّا كان صلاحُ بني آدم لا يتمُّ، في دينهم ودنياهم، إلاّ بالشجاعة والكرم، بيَّن اللهُ سبحانه أنّه مَنْ تَوَلّى عنه ، بتركِ الجهاد بنفسه ، أبدل الله به مَنْ يقوم بذلك . ومَنْ تولّى عنه، بإنفاق ماله ، أبدل الله به من يقوم بذلك.

---

(١) سورة الأنفال ، ٨ ، الاية ١٦ .
(٢) سورة التوبة ، ٩ ، الاية ٥٦ ، ٥٧ .
(٣) سورة محمد ، ٤٧ ، الاية ٢٠ .
(٤) سورة النساء ، ٤ ، الاية ٧٧ .

فقال : (يا أيُّهـــا الذين آمنوا ما لَـكُـم إذا قيل لكم انفِروا في سبيل الله اثّاقَلْتُم الى الأرض ؟ (٢٠ آ) أرَضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل. إلاّ تَـنْفِروا يُعذّبكم عذاباً أليماً، ويستَبْدِلْ قوماً غَـيْـرَكم ، ولا تضرّوه شيئاً ، والله على كلّ شيءٍ قدير)[1] ، وقال تعالى: (ها أنتم هؤلاء تُدْعَوْن لتُنفِقوا في سبيل الله ، فمنكم مَنْ يبخلُ ، ومَنْ يبخلْ فإنّما يبخـــل عن نفسه ، والله الغنيُّ وأنتم الفقراء . وإنْ تتوَلَّوْا يستبدِلْ قَـوْماً غيرَكم ، ثمّ لا يكونوا أمثالكم)[2] .

وبالشجاعة والكرم في سبيل الله فَضَّل اللهُ السابقين، فقال : (لا يستوي منكم مَنْ أنفق من قَبْلِ الفتحِ وقـــاتلَ ، أولئك أعظمُ درجةً من الذين أنفقوا من بَعْدُ وقاتلوا ، وكُلاًّ وَعَد اللهُ الحُسْنى)[3] .

وقد ذكر الجهاد بالنفس والمال في سبيله ، ومدحه في غير آية من كتابه . وذلك هو الشجاعة والسماحةُ في طاعته سبحانه ، فقال : (كم من فئة قليلة غلبتْ فئةً كثيرة بإذن الله ؟ والله مع الصابرين)[4] ، وقال تعالى : (يا أيُّها الذين آمنوا إذا لقيتُم فئةً فاثبُتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلّكم تُفلحون . وأطيعوا اللهَ ورسولَه ، ولا تَنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحُكم ، واصبِروا إنّ الله مع الصابرين)[5] .

---

(١) سورة التوبة ، ٩ ، الاية ٣٨ و ٣٩ .

(٢) سورة محمد ، ٤٧ ، الاية ٣٨ .

(٣) سورة الحديد ، ٥٧ ، الاية ١٠ .

(٤) سورة البقرة ، ٢ ، الاية ٢٤٩ .

(٥) سورة الأنفال ، ٨ ، الاية ٤٥ ، ٤٦ .

[ما هي الشجاعة]

والشجاعةُ ليست هي قوّة البـــدن . فقد يكون الرجلُ قويٌّ البدن ضعيفَ القلب . وإنما هي قوّة القلب وثباتُه . فإنّ القتال مداره على قوّة البدن ، وصنعتُه للقتال ، وعلى قوّة القلب وخبرته به .

والمحمودُ منها ما كان بعلمٍ ومعرفة ، دون التهوُّر الذي لا يفكّـر صاحبه، ولا يميّز بين المحمود والمذموم (٢٠ ب) . ولهذا كان القويّ الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل ما يصلُح دون ما لا يصلُح . فأمّا المغلوب حين غضبه فليس هو بشجاع ولا شديد .

[عودة الى الصبر وانواعه]

وقد تقدّم أنّ جماع ذلك هو الصبر ، فإنّه لا بُدّ منه .

والصبر صبران : صبرٌ عند الغضب ، وصبر عند المصيبة . كما قال الحسن رحمه الله : « ما تجرّع عبدٌ جرعةً أعظم من جُرعةِ حـــلمٍ عند الغضب ، وجرعةِ صـــبر عند المصيبة » . وذلك لأن أصل ذلك هو الصبر على المؤلم . والشجاعُ الشديد (١) هو الذي يصبر على المؤلم .

والمؤلم إنْ كان مما يُمكن دفعُه أثارَ الغضبَ ، وإنْ كان مما لا يُمكن دفعه أثار الحزن . ولهذا يحمرّ الوجهُ عنـــد الغضب لثَوَران الدم عند استشعار القدرة ، ويصفَرُّ عند الحزن لغَوْر الدم عند استشعار العجز .

---

(١) ف : « وهذا هو الشجاع الشديد ... » .

ولهذا جمع النبيّ ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن عبد الله ابن مسعود ، رضيَ الله عنه ، قال : قال النبيّ ﷺ : « ما تعدّون الرّقوبَ فيكم ؟ قالوا : الرّقوب الذي لا يولَدُ له . قال : ليس ذاك بالرّقوب ، ولكنّ الرقوب الرجلُ الذي لم يقدّم من ولده شيئاً . ثم قال : ما تعدّون الصُّرَعَةَ فيكم ؟ قلنا : الذي لا يصرعُه الرجال . فقال . ليس بذلك ، ولكن الصُّرَعة هو الذي يملك (٢١ آ) نفسه عند الغضب »[١] .

فذكر ما يتضمّنُ الصَّبْر عند المصيبة ، والصبر عند الغضب .

قال اللهُ تعالى في المصيبة : (وبشّرِ الصابرين ، الذين إذا أصابَتْهم مصيبةٌ قالوا : انّا لله وإنّا اليه راجعون)[٢] .

وقال تعالى في الغضب : (وما يُلَقّاها إلّا الذين صبروا ، وما يُلقّاها إلّا ذو حظّ عظيم)[٣] .

وهذا الجمعُ بين صبْر المصيبة وصبْر الغضب نظيرُ الجمع بين صبر المصيبة وصبْر النعمة ، كما في قوله تعالى : (ولئن أَذقْنا الإنسانَ منّا رحمةً ثم نَزَعناها منه إنّه ليئوس كفورٌ . ولئن أذقناه نعماءَ بعد ضَرّاءَ مَسّتْهُ ليقولَنّ : ذهب السيئاتُ عني ، إنّه لَفَرِحٌ فخور . إلاّ الذين صبروا وعملوا الصالحاتِ أولئك لهم مغفِرة وأجرٌ كبير)[٤] ، وقال : (لكيلا

---

(١) انظر صحيح مسلم ٤/٢٠١٤ ، الحديث ١٠٦ .
(٢) سورة البقرة ، ٢ ، الاية ١٥٥ و١٥٦ .
(٣) سورة فصلت ، ٤١ ، الاية ٣٥ .
(٤) سورة هود ، ١١ ، الايات ٩ – ١١ .

تأسَوْا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم)[1] .

وبهذا وصف كعب بن زُهَير مَنْ وصفه من الصحابة المهاجرين ، رضي الله عنهم ، حيث قال[2] :

لا يفرحون إذا نالت سيوفهم[3] قوماً ، وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

وكذلك قال حسّان بن ثابت في وصفه الأنصار رضي الله عنهم[4] :

لا فَخْرَ إنْ هم أصابوا من عدوّهم وإن أُصيبوا فلا خور ولا هَلَعُ[5]

وقال بعضُ العرب في صفة النبيّ ﷺ : « يغلبُ فلا يَبْطَر ، ويُغلَبُ فلا يضجر » (٢١ ب) .

[النهي عند تعدي الحدود]

ولما كان الشيطانُ يدعو الناس ، عند هذَيْن النوعين ، الى تعدّي الحدود بقلوبهم ، وأصواتهم ، وأيديهم ، نهى النبيُّ ﷺ عن ذلك ، فقال لما قيل له ، وقد بكى لمّا رأى ابراهيمَ في النَزْع : « أتبكي وأنتَ تَنْهى عن البكاء ؟ فقال : إنّما نُهيتُ عن صوتَيْن أحمقَيْن فاجرَيْن : صوتٌ عند نعمة : لهوٌ

---

(١) سورة الحديد ، ٥٧ ، الاية ٢٣ .
(٢) البيت من قصيدة « بانت سعاد » . انظر شرح ديوان كعب ص ٢٥ .
(٣) في شرح ديوان كعب « رماحهم » .
(٤) انظر ديوان حسان (تحقيق سيد حنفي حسنين) ، ص ٢٣٩ .
(٥) هذه رواية الطبري ، وفي الديوان « .. فلا خور ولا جزع » .

ولعب ، ومزامير شيطـــان ، وصوتٌ عند مصيبة : لطمُ خدود ، وشقّ جيوب ، ودُعاء بدعوى الجاهلية »[1] . فجمع بين الصوتَيْن .

وأمّا نهيُه عن ذلك في المصائب ، فمثل قوله ﷺ : « ليس منّا مَنْ لطم الخدود ، وشقّ الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية »[2] . وقال : « أنا بريءٌ من الحالقة ، والصالقة ، والشّاقة[3] ، وقال : « إنّ الله لا يؤاخذ على دمع العيْن ولا حزْن القلب ، لكنْ يعذّب بهذا أو يرحم . وأشار الى لسانه[4]،وقال: « مَنْ نِيحَ عليه ، فإنّه يُعذّبُ بما نيح عليه[5] » .

واشترط على النساء في البيعة « أن لا ينحْنَ » . وقـــال : « إنّ النائحة اذا لم تَتُبْ قبل موتها ، فإنّها تُلْبَسُ يوم القيــامة دِرْعاً من جَرَب ، وسِرْبالاً من قَطِران »[6] .

فالنبيّ ﷺ ذكر الصوتَيْن الأحمقيْن الفاجرْين . الصوت الذي يوجب

---

(١)انظر البخاري في كتاب الجنائز .

(٢) رواه البخاري في كتاب الجنائز ، باب : ليس منا من ضرب الخدود ٧٣/٢ .

(٣) رواه البخاري في كتاب الجنائز ، باب : مـا ينهى من الحلق عند المصيبة ، ٧٣/٢ ، ولفظه : إن رسول الله بريء من الصالقة والحالقة والشاقة » ، والصلق : رفع الصوت الشديد ، يريد رفعه في المصائب ..

(٤) رواه البخاري في كتاب الجنائز ، باب : البكاء عند المريض ٧٤/٢ وفيه « .. ان الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا ، – وأشار الى لسانه – أو يرحم » .

(٥) رواه البخاري في كتاب الجنائز ، باب : ما يكره من النياحة على الميت ٧٢/٢ .

(٦) رواه مسلم في كتاب الجنائز ، باب التشديد في النياحة ، الحديث ، ٢٩ ، ٦٤٤/٢ .

الاعتداء في الفرح حتى يصير الانسان فَرِحاً فخوراً ، والصوت الذي يوجب الجَزَع عند الحزن ، حتى يصير الانسان هَلوعاً جزُوعا .

وأمّا الصوتُ الذي يُثير الغضب لله ، (٢٢ آ) فكالأصوات التي تُقال في الجهاد : من الأشعار المنشدة . فتلك لم تكن بآلات . وكذلك اصوات الشهرة في الفَرَح ، فرخّص منهــا فيا وردتْ به السُنّة : من الضرب بالدّف في العرس ، والأفراح للنساء والصبيان .

وعامّةُ الأشعار التي تنشد بالأصوات لتحريك النفوس هي من هذه الأقسام الأربعة . وهي التشبيبُ ، وأشعار الغضب والحميّة ، وهي الحماسة ، والهجاء، وأشعار المصائب كالمراثي ، وأشعار النِعَم والفرح وهي المدائح .

والشعراء جَرَت عادتهُم أن يمشوا مع الطبع ، كما قال الله تعالى : (ألَمْ تَرَ أنّهم في كلّ وادٍ يَهيمون ، وأنّهم يقولون ما لا يفعلون ؟)[١] ، ولهذا أخبر أنّهم يتّبِعُهمُ الغاوون . والغاوي هو الذي يتّبع هَواه بغير علم . وهذا هو الغيّ ، وهو خِلاف المهتدي. كما أنّ الضالّ هو الذي لا يعلم مصلحته وهو خلاف المهتدي . قال سبحانه : (والنّجمِ إذا هَوى ، ما ضَلّ صاحبُكم وما غَوَى)[٢] فلهذا قال رسولُ الله ﷺ : « عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديّين من بعدي »[٣] .

---

(١) سورة الشعراء ، ٢٦ ، الاية ٢٢٥ – ٢٢٦ .

(٢) سورة النجم ، ٥٣ ، الاية ١ – ٢ .

(٣) رواه ابن ماجه في المقدمة ، ولفظه : « ... فعليكم بما عرفتم من سُنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين . عضوا عليها بالنواجذ ... » ١٦/١ ، الحديث ٤٣ .

فلهذا تجدهم يمدحون جنس الشجاعة وجنس السماحة ، إذْ كان عدم هاذَيْن مذموماً على الإطلاق . وأمّا وجودهما ففيه تحصيل مقاصد النفوس على الإطلاق ، لكن العاقبة في ذلك للمتّقين ، وأمّا غير المتّقين فلهم عاجلةٌ لا عاقبة .

والعاقبةُ ، وإنْ كانت في الآخرة ، فتكون في الدنيا أيضاً . كما قال تعالى لمّا ذكر قصّة نوح (٢٢ ب) ونجاته بالسفينة : (قيلَ يا نوحُ اهبِطْ بسلامٍ منّا وبَرَكاتٍ عليكَ وعلى أُمَمٍ ممّن معك ، وأُمَمٌ سنُمتّعُهم ، ثم يَمَسُّهم منّا عذابٌ أليم — الى قوله : فاصبرْ ، إنّ العاقبة للمتّقين) [1] . وقال الله تعالى : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله ، واعلموا أنّ الله مع المتّقين) [2] .

[المحمود من الحمية والشجاعة]

والفرقان أن يحمد من ذلك ما حمده اللهُ ورسولُه . فإن الله تعالى هو الذي حمدُه زَيْنٌ ، وذمُّه شَيْن ، دون غيره من الشعراء والخطباء وغيرهم ، ولهذا لمّا قال القائل من بني تميم للنبيّ ﷺ : « إن حمدي زَيْنٌ ، وذمّي شَيْن » قال له : « ذاك الله » .

واللهُ سبحانه حمد الشجاعة والسماحة في سبيله ، كما في « الصحيح » عن أبي موسى الأشعري رضيَ الله عنه قال : « قيل لرسول الله ﷺ : الرجلُ

(١) سورة هود ، ١١ ، الاية ٤٨ و٤٩ .
(٢) سورة البقرة ، ٢ ، ١٩٤ .

يُقاتل شجاعةً ، ويُقاتل حميّةً ، ويُقاتل رياءً ، فأيُّ ذلك في سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العُليا ، فهو في سبيل الله »[1] ، وقد قال الله سبحانه : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ، ويكونَ الدينُ كلُّه لله)[2] ، لأن هذا هو المقصودُ الذي خلق اللهُ الخَلْقَ له ، كما قال تعالى : (وما خَلَقْتُ الجنّ والإنسَ إلاّ ليعبُدونِ)[3] .

فكلُّ ما كان لأجل الغاية (٢٣ آ) التي خُلق لها الخلقُ كان محموداً عند الله ، وهو الذي يَبْقى لصاحبه وينفعُه اللهُ به ، وهذه هي الأعمالُ الصالحاتُ. ولهذا كان الناسُ أربعة أصناف :

مَنْ يعمل لِله بشجاعةٍ وسماحة ، فهؤلاء همُ المؤمنون المستحقّون للجنّة .

ومَنْ يعملُ لغير الله بشجاعةٍ وسماحة ، فهذا ينتفع بذلك في الدنيا ، وليس له في الآخرة من خَلاق .

ومَنْ يعملُ لِله ، لكن لا بشجاعة ولا بسماحة . فهذا فيه من النّفاق ونقْص الإيمان بقدر ذلك . ومَنْ لا يعمل لِله ، ولا فيه شجاعة ولا سماحة ، فهذا ليس له دنيا ولا آخرة .

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الجهاد ، باب النية في القتال ٢/٩٣١ ، الحديث ٢٧٨٣ - ورواه مسلم في كتاب الإمارة ، باب من قاتل لتكون كلمة الله العليا ، ٣/١٥١٣ ، الحديث ١٥٠ .

(٢) سورة الأنفال ، ٨ ، الاية ٣٩ .

(٣) سورة الذاريات ، ٥١ ، الاية ٥٦ .

[الاخلاق التي يحتاج اليها المؤمن]

فهذه الأخلاق والأعمالُ يحتاجُ اليها المؤمنُ عموماً ، وخصوصاً في أوقات المِحَنِ والفِتَن الشديدة . فإنّهم يحتاجون الى صلاح نفوسهم عند المقتضى للفتنة عندهم . ويحتاجون ايضاً الى أمْرِ غيرهم ونهيه بحسب قدرتهم . وكلّ من هذَيْن الأمرَيْن فيه من الصعوبة ما فيه ، وإنْ كان يسيراً على مَنْ يَسَّرَه الله عليه .

وهذا لأنّ الله أمر المؤمنين بالايمان والعمل الصالح ، وأمرهم بدعوة الناس وجهادهم على الايمان والعمل الصالح ، ولكنّهم كما قال الله تعالى : (ولَيَنْصُرَنّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إنّ الله لقويٌ عزيز . الذين إنْ مَكَنّاهم في الأرضِ أقاموا الصلاةَ ، وآتوا الزكاةَ ، وأَمَروا بالمعروف ، ونَهَوْا عن المنكر ، ولِله عاقبةُ الأمور)[1] . وكما قال إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا (٢٣ ب) ، ويوم يقوم الأشْهاد)[2] ، وكما قال : (كتب اللهُ لأغلِبَنّ أنا ورُسُلي . إنّ الله قويٌ عزيز)[3] . وكما قال : (وإنّ جندَنا لهمُ الغالبون)[4] .

[التعلّل بالخوف من الفتنة ، لترك الأمر بالمعروف ..]

ولما كان في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله من

---

(١) سورة الحج ، ٢٢ ، الاية ٤٠ ٤١ .
(٢) سورة غافر ، ٤٠ ، الاية ٥١ .
(٣) سورة المجادلة ، ٥٨ ، الاية ٢١ .
(٤) سورة الصافات ، ٣٧ ، الاية ١٧٣ .

الابتلاء والمِحَن ما يتعرّض به المرءُ للفتنة ، صار في الناس من يتعلّلل لترْك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة . كما قال الله تعالى عن المنافقين : (ومنهم مَنْ يقولُ : ائـذَنْ لي ولا تفتِنّي . ألا في الفتنة سقطوا) [1] الآية .

وقد ذكروا في التفسير [2] أنّها نزَلت في الجَدّ بن قَيْس لما أمره النبيّ ﷺ بالتجهّز لغزو الروم . وأُظنّ أنّ رسولَ الله ﷺ قال له : « هل لك في نساء بني الأصفر ؟ فقال : يا رسول الله ، إني رجلٌ لا أصبرُ عن النساء، وإني أخافُ الفتنة بنساء بني الأصفر ، فائذن لي ، ولا تفتنّي » [3] .

وهذا الَجدُّ هو الذي تخلّف عن بَيْعَة الرضوان تحت الشجرة ، واستَتر بجملٍ أحمر [4] . وجاء فيه الحديث : « كلّهم مغفورٌ له ، إلاّ صاحب الجمل الأحمر » . فأنزل الله تعالى فيه : (ومنهم مَنْ يقولُ ائذَنْ لي ، ولا تفتنّي ، ألا في الفتنة سقطوا) .

يقولُ : إنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء ، فلا يفتتن بهنّ ، فيحتاج إلى

---

(١) سورة التوبة ، ٩ ، الاية ٤٩ .

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٥٨/٨ .

(٣) الذي في سيرة ابن هشام ١٥٩/٤ : « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للجد بن قيس ، أحد بني سلمة : يا جد ، هل لك في جلاد بني الأصفر ؟ فقال يا رسول الله ، أوَ تأذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر . فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : قد أذنت لك. ففي الجد بن قيس نزلت هذه الاية .. الخ » .

(٤) انظر سيرة ابن هشام ٣٠/٣ .

الاحتراز من المحظور ومجاهدة نفسه عنه . فيتعذّب بذلك ، أو يواقعه فيأثم .
فإنّ مَنْ رأى الصورة الجميلة وأحبّها ، فإنْ لم يتمكّن منها - إمـــا لتحريم الشارع ، وإما للعجز عنها - يُعذّب قلبه ، (٢٤ آ) وإن قدر عليها وفعل المحظور هلك . وفي الحلال من ذلك من معالجة النساء ما فيه بلاء .

فهذا وجه قوله « ولا تفْتِنّي » ، فقـــال الله تعالى : (ألا في الفتنة سقطوا) . يقـــول : إنّ نفس إعراضه عن الجهاد الواجب ، ونكوله عنه ، وضعفَ إيمانه ، ومرض قلبه ، الذي زيّن له تركَ الجهاد : فتنةٌ عظيمة قــد سقط فيها . فكيف يطلبُ التخلّص من فتنة صغيرة لم تُصِبْهُ بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابَتْه ؟ والله تعالى يقول : (وقاتـــلوهم حتى لا تكونَ فتنة ، ويكون الدينُ كلُّه لله)[1] . فَمَن ترك القتال الذي أمر الله به لئلا تكون فتنة ، فهو في الفتنة ساقط ، ربما وقع فيه من ريْب قلبه ، ومرض فؤاده ، وتَرْكِ ما أمره الله به من الجهاد .

فتدبَّرْ هذا ، فإنه مقام خَطِر . والناسُ فيه على قسمين :[2] .

قسمٌ يأمرون وينهَوْن ويُقاتلون طلباً لإزالة الفتنة - زعموا - ، ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة ، كالمقاتلين في الفتن الواقعة بين الأمّة مثل الخوارج .

وأقوام ينكلون عن الأمر والنهْي والقتال الذي يكون به الدين كلّه لله ،

---

(١) سورة الأنفال ، ٨ ، الآية ٢١ .

(٢) ف « الناس فيه ثلاثة أقسام » .

وتكون كلمة الله هي العليا ، لئلا يُفْتَتَنوا ، وهم قد سقطوا في الفتنة .

وهذه الفتنة المذكورة في سورة « براءة » دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة، فإنها سبب نزول الآية . وهذه حالُ كثير من المتدينـّة ، يتركون ما يجب عليهم من أمرٍ ونَهْيٍ وجهاد ، يكونُ به الدينُ كلـّه لِله ، وتكون به كلمة الله هي العليا ، لئلا يفتـَتنوا بجنس الشهوات ، وهم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم مما زعموا أنـّهم فرّوا منها (٢٤ ب) .

وإنما الواجب عليهم القيـــام بالواجب من الأمر والنهْي وترك المحظور ، والقيام بالواجب وترك المحظور متلازمان [١] ، لكوْن نفوسهم لا تُطاوعهم إلَّا على فعلهما جميعاً أو تركهما جميعاً ، مثل كثير ممّن يحبّ الرياسة ، أو المال ، أو شهوات الغيّ ، فإذا فعل ما وَجبَ عليه من أمرٍ ونَهْي وجهاد وإمارة ونحو ذلك فلا بُدّ أن يفعل معها شيئاً من المحظورات ، فالواجبُ عليه حينئذ أن ينظر أغلب الأمريْن . فإنْ كان المأمور أعظم أجراً من ترك ذلك المحظور ، لم يترك ذلك ، لِما يخاف من أن يقترن به ما هو دونه في المفسدة . وإنْ كان ترك المحظور أعظم أجراً ، لم يفوّت ذلك برجاء ثواب فعلٍ واجب يكون بمـــا يجتمع له من الأمريْن من الحسنات والسيئات . فهذا هذا . وتفصيل ذلك يطول .

[لا بد لكل انسان من الأمر والنهي]

وكلّ بَشـَر على وجه الأرض فلا بُدّ له من أمرٍ ونهي . ولا بُدّ أن يُؤمَر

(١) ف « متلازم » .

ويُنهى ، حتى لو أنّه وحدَه لكان يأمر نفسه وينهاها : إمّا بمعروف ، وإمّا بمُنكر كما قال الله تعالى (إنّ النفسَ لأمّارةٌ بالسوء [1]) .

فإنّ الأمر هو طلبُ الفعل وإرادته . والنهْيُ طلبُ التـرْك وإرادته .

[بنو آدم لا يعيشون الا بالاجتماع]

ولا بُدّ لكلّ حيٍّ من إرادة وطلبٍ في نفسه يقتضي بها فعل نفسه ، ويقتضي بها فِعْلَ غَيْره إذا أمكنَ ذلـك . فإنّ الإنسان حيٌّ يتحرّك بإرادته ، وبنو آدم لا يعيشون إلاّ باجتماع بعضهم مع بعض .

واذا اجتمع اثنان فصاعداً (٢٥ آ) فلا بُدّ أن يكون بينـهما ائتمار بأمر ، وتَـنَـاهٍ عن أمر . ولهذا كان أقلّ الجماعة في الصلاة اثنان ، كما قيل : الاثنان فما فوقهما جماعة . ولكنْ لمّا كان ذلك اشتراكاً في مجرّد الصـلاةَ حصل باثنـيْن ، أحدُهما إمامٌ والآخر مأموم . كما قال النبيُّ ﷺ لمالك بن الحويرث وصاحبه ، رضيَ الله عنهما : « إذا حَضَرت الصلاةُ فأذّنا وأقيما ، ولْيؤمّكما أكبرُكما » [2] . وكانا متقاربَيْن في القراءة .

وأمّـا في الأمور العادية ففي السنن أنّ رسول الله ﷺ قال : « لا يحلّ لثلاثةٍ يكونون في سَفَر إلّا أمّروا عليهم أحدهم » [3] .

---

(١) سورة يوسف ، ١٢ ، الاية ٥٣ .

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب : من احق بالإمامة ، ١/٤٦٦ ، الحديث ٢٩٣ .

(٣) رواه ابو داود في كتاب الجهاد ولفظه : « إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم » .

[الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم ، فلا بد من الامر
بالمعروف الذي أمر به الله ورسوله ...]

وإذا كان الأمرُ والنهي من لوازم وجود بني آدم ، فَمَنْ لم يأمر بالمعروف الذي أمرَ به اللهُ ورسولُه ، وينهى عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسولُه ، ويؤمَرُ بالمعروف الذي أمر اللهُ به ورسولُه ، ويُنهى عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله – وإلاّ فلا بُدَّ من أن يأمر وينهى ، ويؤمر ويُنهى إمّا بما يضاد ذلك ، وإمّا بما يشترك فيه الحقّ الذي أنزله الله بالباطل الذي لم يُنزلْه الله . وإذا اتخذ ذلك ديناً كان ديناً مُبتَدَعاً ضالاً باطلا . وكما أنّ كلّ بشرٍ هو حيّ متحرّك بإرادته ، همّام حارث ، فَمَنْ لم تكن نيتّه وعمله عملاً صالحاً لوجه الله ، كان عمله عملاً فاسداً أو لغيْر وجه الله ، وهو الباطل . كما قال تعالى : (إنّ سعيكم لشتّى [1]) .

وهذه الأعمال (٢٥ ب) كلّها باطلة من جنس أعمال الكفّار (الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ، أضلّ أعمالهم) [2] ، وقال تعالى : (والذين كَفَروا ، أعمالُهم كسَرَابٍ بِقيعةٍ يحسبُه الظمآنُ ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئاً ، ووجد الله عنده فوفّاه حسابَه ، واللهُ سريعُ الحساب) [3] ، وقال : (وقَدِمْنا الى ما عَمِلوا من عَمِلٍ فجعلناهْ هَبَاءً مَنْثُورا) [4] .

[من هم أولو الأمر الذين يأمرون بالمعروف]

وعد أمر الله تعالى في كتابه بطاعته وطاعة رسوله وطاعة أولي الأمر من

---

(١) سورة الليل ، ٩٢ ، الاية ٤ .
(٢) سورة محمد ، ٤٧ ، الاية ١ .
(٣) سورة النور ، ٢٤ ، الاية ٣٩ .
(٤) سورة الفرقان ، الاية ٢٣ .

المؤمنين ، كما قال تعالى : (يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمْر منكم . فإن تنازعتُم في شيءٍ فردّوه الى الله والرّسولِ ، إنْ كُنْتُم تؤمنون بالله واليومِ الآخِرِ . ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلا)[1] .

وأولو الأمر : أصحاب الأمر وذووه . وهم الذين يأمرون الناس وينهونهم، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة ، وأهل العلم والكلام .

فلهذا كان أولو الأمر صنفَيْن : العلماء والأمراء . فإذا صلحوا صلُح الناس ، وإذا فسدوا فسد الناس . كما قال أبو بكر الصِدّيق رضيَ الله عنه للأحمسيّة لمّا سألتْهُ : ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح ؟ قال : ما استقامت لكم أئمتكم .

ويدخلُ فيهم الملوك والمشايخ وأهل الديوان . وكلُّ مَنْ كان متبوعاً فهو من أولي الأمر .

وعلى كلّ واحد من هؤلاء أن يأمر بما أمرَ الله به ، وينهى عما نهى الله عنه. وعلى كلّ واحدٍ ممّن عليه طاعته (٢٦ آ) أن يطيعه في طاعة الله ولا يطيعه في معصية الله ، كما قال ابو بكر الصِدّيق ، رضىَ اللهُ عنه ، حين تولّى أمر المسلمين وخطَبَهم فقال في خطبته :

« أيّها الناسُ ، القويُّ فيكم الضعيف عندي حتى آخذ منه الحقّ . أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله ، فإذا عصيتُ اللهَ فلا طاعةَ لي عليكم »[2] .

---

(١) سورة النساء ، ٤ ، الاية ٥٩ .

(٢) انظر هذه الخطبة في جمهرة خطب العرب ٦٧/١ ، والمصادر المذكور هناك .

فصـــل

[لا بد في جميع الحسنات ان يراد بها وجه الله]

وإذا كانت جميع الحسنات لا بُدّ فيها من شيئَيْن : أن يُرادَ بها وجه الله ، وأن تكون موافقةً للشريعة ، فهذا في الأقوال والأفعال، في الكَلِم الطيّب والعمل الصالح ، في الأمور العلمية والأمور العمليّة العبـــادية . ولهذا ثبت في « الصحيح » عن النبيّ ﷺ أنّه قال: « إنّ أوّل ثلاثةٍ تُسْعَرُ[1] بهم جهنّم رجلٌ تعلّم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن وأقرأه ليقول الناس: هو عالم وقارىء. ورجلٌ جاهدَ وقاتل ليقول النـــاسُ : هو شجاع وجريء . ورجلٌ تصدّق وأعطى ، ليقول النـــاسُ : هو جوادٌ وسَخِيّ »[2] . فإن هؤلاء الثلاثة الذين يريدون الرّياء والسُمْعَةَ هم بإزاء الثلاثة الذين بعد النبيّين : من الصِدّيقين والشهداء والصالحين .

فإنّ مَنْ تعلّم العلم الذي بعث اللهُ به رسله ، وعلّمه لوجــه الله ، كان صِدّيقا . ومَنْ قاتل لتكون كلمة الله العليا وقُتل كان شهيداً، ومَنْ تصَدّق يبتغي بذلك وجه الله كان صالحاً .

ولهذا يسأل المفرّطُ في ماله الرجعةَ وقتَ الموت ، كما قال ابنُ عبّاس ،

---

(١) ف « تسجر » .

(٢) رواه الترمذي ، ابواب الزهد ، باب مـــا جاء في الرياء والسمعة ١١٢/٧ – ١١٤ ؛ ومسلم في كتاب الامارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ، ١٥١٣/٣ – ١٥١٤ ، ونص الحديث فيهما أطول .

رضيَ الله (٢٦ ب) عنهما : « مَنْ أُعطيَ مالاً فلم يحجّ منه ، ولم يُزكّ ، سأل الرجعة وقت الموت » وقرأ قوله تعالى : (وأنفِقوا ممّا رزقْناكم من قبلِ أنْ يأتيَ أحدَكم الموتُ فيقولَ : ربِّ ، لولا أخّرْتني الى أجَلٍ قريبٍ ، فأصَّدّقَ وأكنْ من الصالحين)[1] ، ففي هذه الأمور العلمية الكلاميّة يحتاجُ الآمرُ أن يكون ما يُخبر به عن الله واليوم الآخر ، وما كان ويكون ، صواباً. وما يأمر به وما ينهى عنه كما جاءت به الرسلُ عن الله . هذا هو الصواب الموافق للسُنّة والشريعة ، المتّبع لكتاب الله وسُنّة رسوله .

كما أنّ العبادات التي نتعبّد بها إذا كانت ممّا شرّعه الله ، وأمر اللهُ به ورسوله كانت حقّاً صواباً ، موافقاً لِما بعثَ اللهُ به رسُلَه ، وما لم يكن كذلك من القسميْن كان من الباطل والبدع المضلّة والجهل . وإنْ كان يُسمّيه مَنْ يُسمّيه : علوماً ومعقولات وعبادات ومجاهدات وأذواقاً ومقامات .

ويحتاجُ أيضاً أن يأمر[2] بذلك لأمر الله ، وينهى عنه لنهي الله ، ويخبر بما أخبر الله به ، لأنّه حق وإيمانٌ وهُدى ، كما أخبرت به الرُسل . كما تحتاج العبادة إلى أن يُقصَدَ بها وجه الله . فإذا قيل ذلك لاتّباع الهوى والحميَّة ، أو لإظهار العلم والفضيلة ، أو لطلب السمعة والرياء ، كان بمنزلة المقاتِل شجاعة وحميَّة ورياءً .

ومن هنا يتبيّن لك (٢٧ آ) ما وقع فيه كثيرٌ من أهل العلم والمقال ، وأهل العبادة والحال . فكثيراً ما يقولُ هؤلاء من الأقوال ما هو خِلاف

---

(١) سورة « المنافقون » ، ٦٣ ، الاية ١٠ .

(٢) ف « يؤمر .. يُنهى » .

الكتاب والسُنَّة ، أو ما يتضمَّن خلافَ السُنَّة ووفاقها . وكثيراً ما يتعبَّد هؤلاء بعبادات لم يأمر اللهُ بهـا ، بل قد نهى عنها . أو ما يتضمَّنُ مشروعاً محظوراً . وكثيراً ما يُقاتل هؤلاء قتالاً مُخالفاً للقتال المأمور به ، أو متضمّناً لمأمور به ومحظور .

ثمَّ كلٌ من الأقسام الثلاثة : المأمور به ، والمحظور ، والمشتمل على الأمريْن قد يكون لصاحبه نيَّة حسنة ، وقد يكونُ متبعـاً لهواه ، وقد يجتمع له هذا وهذا .

فهذه تسعة أقسام في هذه الأمور . وفي الأموال المنفقة عليهـا من الأموال السلطانيَّة : الفيءُ وغيره ، والأموال الموقوفة ، والأموال الموصى بهـا ، والمنذورة ، وأنواع العطايا ، والصدقات ، والصلات . وهذا كلُّه من لَبْس الحق بالباطل ، وخلط عمل صالح وآخر سيّء .

والسيّءُ من ذلك قد يكونُ صاحبُه مخطئاً أو ناسياً فهو مغفور له، كالمجتهد المخطيء الذي له أجرٌ ، وخطؤه مغفور له . وقد يكون صغيراً مُكَفَّراً باجتناب الكبائر ، وقد يكون مغفوراً بتَوْبة ، أو بحسناتٍ تمحو السيّئات ، أو مكفَّراً بمصائب الدنيا ، ونحو ذلك .

إلّا أنّ دين الله الذي أنزل به كتبه ، وبعث به رسله ، ما تقدم: من إرادة الله وحدَه بالعمل الصالح (٢٧ ب) .

[لا يقبل الله من أحد غير الاسلام]

وهذا هو الاسلام العام الذي لا يقبل اللهُ من أحدٍ غيره . قال تعـالى :

(ومَنْ يَبْتَغِ غيرَ الاسلامِ دينــاً فلن يُقبَلَ منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين)[1] ، وقال تعــالى : (شهدَ اللهُ أنــّه لا إله إلاّ هو ، والملائكةُ وأولوا العلمِ قائماً بالقِسطِ . لا إله إلاّ هوَ العزيزُ الحكيم . إنّ الدينَ عند اللهِ الأسلامُ) [2] .

[معاني الاسلام]

والاسلام يجمع معنيَيْن. أحدهما الاستسلام والانقياد، فلا يكون متكبّرا. والثاني : الاخلاص ، من قوله تعالى : (ورجُلاً سَلَماً لرَجُل)[3] فلا يكون مشترَكا، وهو أن يُسلِم العبدُ لله ربّ العالمين . كما قال تعالى : (ومَنْ يرغبُ عن مِلــّةِ ابراهيمَ إلاّ مَنْ سَفِهَ نفسَهُ ، ولقد اصطفيناهُ في الدنيا ، وإنــّه في الآخرة لمن الصالحين . إذْ قال له ربُّه : أسلِمْ . قال : أسلمتُ لربِّ العالمين. وَوَصّى بها ابراهيمُ بنيه ويعقوبُ : يا بَنِيّ إنّ اللهَ اصطفى لكمُ الدينَ فلا تموتُنّ إلاّ وأنتم مسلمون)[4] ، وقال تعالى : (قُلْ إنــّني هَداني ربّي الى صِراطٍ مستقيم . ديناً قِيَماً مِلــّة ابراهيمَ حنيفاً وما كان من المشركين . قُلْ إنّ صلاتي ونُسُكي ومحيايَ ومماتي لله ربّ العالمين . لا شريكَ له ، وبذلك أُمِرْتُ ، وأنا أوّلُ المسلمين)[5] .

والاسلام يُستعمل لازماً معدّى بحرف اللام ، مثلما ذكر في هذه الآيات . ومثل قوله تعــالى : (وأنيبوا الى ربّكم وأسلموا له من قَبْلِ أن يأتيَكم

---

(١) سورة آل عمران ، ٣ ، الاية ٨٥ .
(٢) سورة آل عمران ، ٣ الاية ١٨ – ١٩ .
(٣) سورة الزمر ، ٣٩ . الاية ٢٩ ، وسلماً معناها خالصاً .
(٤) سورة البقرة ، ٢ ، الاية ١٣٠ – ١٣٢ .
(٥) سورة الأنعام ، ٦ ، الايات ١٦١ – ١٦٣ .

العذابُ ، ثمّ لا تُنصَرون)[١] ، ومثل قوله تعــالى : (قالت ربِّ إنـّي ظلمتُ نفسي (٢٨ آ) وأسلَمْتُ مع سُليمانَ لله ربِّ العالَمين)[٢] ، ومثل قوله تعالى : (أفَغَيْر دين الله يَبْغون ، وله أسلَمَ مَنْ في السموات والأرض طَوْعاً وكَرْهاً وإليه يُرْجَعون)[٣] . ومثل قوله تعالى : (قُلْ أنَدْعوا من دون الله ما لا ينفعُنا ولا يضرُّنا ، ونُرَدُّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ؟ كالذي استَهْوَتْهُ الشياطينُ في الأرض حَيْرانَ ، له أصحابٌ يدعونه الى الهدى ائْتِنا . قُــلْ إنّ هُدى الله هو الهُدى ، وأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لربِّ العالمين)[٤] .

ويُستعمل متعدّياً مقروناً بالإحسان . كقوله تعالى : (وقالوا لن يدخلَ الجنّةَ إلاّ مَنْ كان هوداً أو نصارى . تِلْكَ أمانيهُّم . قُلْ :هاتوا برهانَكم إنْ كنتم صادقين . بلى ، مَنْ أسلم وجهه لله وهو محسنٌ فله أجرُه عند ربّه ، ولا خَوْفٌ عليهم ولا هُم يحزنون)[٥] ، وقوله تعالى : (ومَنْ أحسنُ ديناً مِمّن أسلمَ وَجْهَهُ لله وهو مُحسنٌ ، واتّبع مِلّة إبراهيم حنيفاً ، واتّخذ الله ابراهيمَ خليلا)[٦] فقد أنكر اللهُ أن يكونَ دينٌ أحسن من هذا الدين . وهو إسلام الوجه لله مع الإحسان . وأخبر أنّ كلّ مَنْ أسلم وجهه لله وهو مُحسنٌ فله أجرُه عند ربّه ، ولا خوف عليهم ولا هُم يحزنون .

---

(١) سورة الزمر ، ٣٩ ، الاية ٥٤ .
(٢) سورة النمل ، ٢٧ ، الاية ٤٤ .
(٣) سورة آل عمران ، ٣ ، ٨٣ .
(٤) سورة الأنعام ، ٦ ، الاية ٧١ .
(٥) سورة البقرة ، ٢ ، الاية ١١١ ، ١١٢ .
(٦) سورة النساء ، ٤ الاية ١٢٥ .

أثبتْ هذه الكلمة الجامعة ، والقضيّة العامّة ردّاً لمزاعم مَنْ زعم أنه لا يدخل الجنّة إلاّ مُتهوّد أو مُتنصّر .

[معنى اسلام الوجه لله]

وهذان الوصفان ، وهما اسلام الوجه لِله ، والإحسان ، هما الأصلان المتقدّمان . وهما كون العمل خالصاً لِله (٣٨ ب) ، صواباً موافقاً للسُنّة والشريعة .

وذلك أنّ اسلام الوجه لِله هو متضمّنٌ القَصْدَ والنيّة لِله ، كما قال بعضهم :

استغفر الله ذنباً لستُ مُحْصيه رب العباد اليه الوجهُ والعملُ

وقد استُعمل هنا أربعة ألفاظ : اسلام الوجه ، وإقامة الوجه ، وتوجيه الوجه . كقوله تعالى (وأقيموا وجوهكم عند كلّ مسجد)[١] ، وقوله تعالى : (فأقِمْ وجهك للدين حنيفاً ، فَطْرَةَ الله التي فَطَرَ الناسَ عليها) [٢] ، وكقول الخليل عليه السلام : (إنّي وَجّهْتُ وَجْهي لِلذي فَطَرَ السموات والأرضَ حنيفاً ، وما أنا من المشركين) [٣] . وكذلك كان النبيّ ﷺ يقول في دُعاء الاستفتاح في صلاته من الليل : « وجّهْتُ وجهي لِلّذي فَطَرَ السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين »

---

(١) سورة الأعراف ، ٧ ، الاية ٢٩ .
(٢) سورة الروم ، ٣٠ ، الاية ٣٠ .
(٣) سورة الأنعام ، ٦ ، الاية ٧٩ .

وفي الصحيحَيْن عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أنّ النبيّ ﷺ علّمه أن يقول اذا أوى الى فراشه : « اللهم أسلمتُ نفسي إليك ، ووجّهْتُ وجهي اليك – الحديث »[1] .

فالوجه يتناول المتوجِّه ، بكسر الجيم ، والمتوجَّه ، بفتح الجيم – اليه ، ويتناول المتوجَّه نحوه . كما يُقال : أيُّ وجهٍ تريد ؟ أي أيُّ وجهة وناحية تقصد . وذلك أنهما متلازمان . فحيث توجّه الانسانُ توجّه وجهُه ، ووجهُه مستلزَم لتوجّهه . وهذا في باطنه وظاهره جميعاً . فهي أربعة أمور . والباطنُ هو الأصل ، والظاهر هو (٢٩ آ) الكمال والشعار . فإذا توجّه قلبه الى شيء تبعه وجهه الظاهر .

فإذا كان العبدُ قصدُه ومُرادُه وتوجُّهُه الى الله ، فهذا صلاح إرادته وقصده . فإذا كان مع ذلك مُحسناً فقد اجتمع له : أن يكون عمله صالحاً ولا يُشرك بعبادة ربّة أحدا . وهو قول عمر رضيَ الله عنه : « اللهم اجعلْ عملي كلّه صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئاً » .

[تعريف العمل الصالح]

والعملُ الصالح هو الإحسان . وهو فعل الحسنات ، وهو ما أمر اللهُ به . والذي أمر اللهُ به هو الذي شرّعَه[2] ، وهو الموافق لكتاب[3] الله وسُنة

(١) انظر صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، الحديث ٥٧ – ٢٠٨٢/٤ .

(٢) ف « شرعه الله » .

(٣) ف « لسنة الله » .

رسوله . فقد أخبر اللهُ تعالى أنّ من أخلص قصده لِله ، وكان مُحسناً في عمله ، فإنّه مستحقٌ للثواب سالم من العقاب .

ولهذا كان أئمة السلف ، رحمهم الله ، يجمعون هذين الاصلين . كقول الفُضيل بن عياض في قوله تعالى : (ليبلوكم أيّكم أحسن عملا) [1] قال : « أخلصه وأصوبه . فقيل : يا أبا عليّ ! ما أخلصه وأصوبُه ؟ فقال : إنّ العمل إذا كان صواباً ولم يكن خالصاً ولم يُقبَل . وإذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، حتى يكون خالصاً صوابا . والخالص أن يكون لِله . والصوابُ أن يكون على السُنّة » .

وقد روى ابنُ شاهين واللالكائي عن سعيد بن جُبَيْر قال : « لا يُقبل قولٌ إلاّ بعمل ، ولا يُقبل قولٌ وعمل إلاّ بنيّة ، ولا يُقبل قولٌ وعملٌ ونيّة إلا بموافقة السُنّة » . ورويا عن الحسن البصريّ مثله ، ولفظه «لا يصلح» مكان « لا يُقبل » .

وهذا فيه ردٌ على المرجئة الذين يجعلون (٢٩ ب) مجرّد القول كافياً . فأخبر أنّه لا بُدّ من قول وعمل، إذ الايمانُ: قولٌ وعمل، لا بُدّ من هذَين. كما قد بسطناه في غير هذا الموضع ، وبيّنا أنّ مجرّد تصديق القلب ونطق اللسان ، مع البغض لِله ولشرائعه والاستكبار على الله وشرائعه لا يكون ايماناً باتفاق المؤمنين ، حتى يقترن بالتصديق عملٌ صالح .

وأصلُ العمل عملُ القلب ، وهو الحبّ ، والتعظيم المنافي للبغض والاستكبار .

---

(١) سورة الملك ، ٦٧ ، الاية ٢ .

ثم قالوا : لا يُقبل قول وعمل إلاّ بنيَّة ، وهذا ظاهر. فإنّ القول والعمل اذا لم يكن خالصاً لله تعالى لم يقبله الله .

ثم قالوا : ولا يُقبل قول وعملٌ ونيَّة إلاّ بموافقة السُنَّة . وهي الشريعة، وهي ما أمرَ الله به ورسوله ﷺ . لأنّ القول والعمل والنيَّة الذي لا يكون مسنوناً مشروعاً ، قد أمرَ الله به – يكون بِدْعَة . وكلّ بدعة ضلالة ، ليس مما يحبّه الله ، فلا يقبله الله ، ولا يصلُح ، مثل أعمال المشركين وأهل الكتاب .

[معنى السنة في كلام السلف]

ولفظُ « السُنَّة » في كلام السلف يتناول السُنَّة في العبادات وفي الاعتقادات . وإنْ كان كثير ممَّن صنَّف في السُنَّة يقصدون الكلام في الاعتقادات . وهذا كقول ابن مسعود ، وأُبيّ بن كعب ، وأبي الدرداء ، رضي الله عنهم : « اقتصاد في سُنَّة ، خيرٌ من اجتهاد في بدعة » ، وأمثال ذلك . والله سبحانه وتعالى أعلم .

والحمد لله وحده ، وصلَّى الله على محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً .

هذا آخر كلام الشيخ رضي الله عنه .

نقله من أصل قديم الفقير لعفو ربه موهوب بن احمد بن هلال الصالحي الحنبلي غفر الله له ذنوبه بمنه وكرمه . ووافق الفراغ منه سلخ سنة اربعين وثمانمائة بالمدرسة الجوزية بدمشق .

والحمد لله رب العالمين ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

فهرس مضمونات الرسالة